المـــرأة
فى
فكر چون ستيوارت مل

د. سامية عبدالرحمن
أستاذ الفلسفة المساعد
جامعة عين شمس

المرأة فى فكر جون ستيوارت مل

المـــرأة
فى
فكر چون ستيوارت مل

د. سامية عبدالرحمن
أستاذ الفلسفة المساعد
جامعة عين شمس

« انني أدين بعظيم أفكاري لتأثيرها »

چون ستيوارت مل

الإهـــداء

إلـى المـرأة المـصـــــرية الأصـــــــيلـة

إلى مـن اعطت وسـتظل تـعطى بلا حـــدود

إلى مـن هي مـثـالأ يحـتـذى فى العلم والخلق

إلى الأستاذة الفاضلة الدكتورة نازلى اسماعيل

أهدى هذا العمل

مقدمـة

لاشك أن رقى أى مـجتمع من المجتمعـات إنما يقاس دائماً بمدى تقديره للمرأة واستجابته لمنحها حقوقها كاملة، فهى الشريكة الأولى للرجل والمسئولة عن تنشئة المواطن الصالح .

وحرية المرأة مشكلة على المستوى العالمى ، إذ على الرغم من أن لكل إنسان الحق فى هذه الحـرية ، يؤيد هذا الحق عـدد من المواثيق والاتفاقات الدولية و كذلك الكتب والشرائع السماوية ، إلا أنه لا يؤكد التمتع بهذا الحق دائماً إلا بالنسبة للرجال ، أما النساء فأقل بكثير ، وهذا نتيجة التميز الذى ينبع من عدة أسباب وينتج عنه عدة نتائج ، وهو تمييز يصعب كشفه لأن القوانين الرسمية بمعظم الدول تعترف بلا تحفظ بمساواة كل من النساء والرجال فى كافة المجالات بما فيها الحرية والتعليم وغير ذلك ، إلا أن الواقع – فى كثير من البلاد متقدمة كانت أم نامية – أن هذه المساواة إسمية فقط .

وإذا كانت المرأة قد توصلت إلى التحرر – فى فترة لاحقة – مادياً واقتصادياً ، فهي لم تحقق بعد – على الصورة المرجوة – التحرر الكامل معنوياً ونفسياً ، وذلك بسبب ما يفرضه عليها الرأى العام والمجتمع من جهة ، وما تفرضه هي على نفسها من جهة أخرى . فإذا كان المظهر المادى قد تغير إلا أن المنبع الأيدولوجى لم يتغير بعد .

هذا ما دعانا إلى الاهتمام بالمرأة ودراستها من خلال فكر أحد أقطاب الفكر الليبرالى الحر ، وأبرز فلاسفة القرن التاسع عشر دعوة إلى الحرية عامة ، حرية المرأة بوجه خاص ... چون ستيورت مل .

ونحن حريصون - إذ نحن نقدم هذه الدراسة أن نلتزم بالمنهج العلمى البعيد عن المبالغة ، والذى يستند فى نفس الوقت إلى الحقائق الموضوعية التى نستقيها من أعماله الفكرية ، ومن التقييم الموضوعى لدوره فى الدعوة إلى الحرية والتنوير وموقفه من قضية المرأة على وجه الخصوص .

وإذا كان " مل" قد دافع عن حقوق المرأة وحريتها فى عصره ، فإن هذا لايمنع من وجود مفكرين - فى كل عصر - دافعوا عن المرأة ، وهنا لابدلنا من إتباع المنهج التحليلى النقدى المقارن الذى يسمح لنا بعقد المقارنات بين مل وغيره من الفلاسفة الذين طرقوا هذا الموضوع ، ولكن بالقدر الذى لا يحيد بنا عن موضوعنا الأصلى ، أو يفسد منهجنا فى الدراسة .

ويهدف هذا العمل إلى بيان الكثير من النواحي الهامة التى ترتبط بفكر مل عن المرأة ، والتى مازالت تناقش فى عصرنا الراهن .

وجدير بالذكر أن دفاع مل المطلق عن حقوق المرأة ونضاله فى سبيل تحريرها ربما يرجع إلى عاملين :

- الحب الذى أثارته فى قلبه صديقته هارييت تايلور ، فكانت مؤلفاته فيما يتصل بالمرأة من وحي هذا الحب وتأثيره .

- عشقه للحرية منذ صباه ونضاله المستمر فى الدفاع عنها ، فكان دفاعه عن المرأة إمتداداً لمذهبه فى الحرية .

ولقد نبع هذا الموضوع - أيضاً - من واقع المشكلات النفسية والاجتماعية التى تعانى منها المرأة - فى عصر مل - وحتى يومنا هذا، ومن ثم ، فهذا العمل يثير اشكاليات ويطرح تساؤلات أكثر مما يقدم حلولاً وإجابات ، لأن المشكلات التى عرض لها مل فيما يخص المرأة مازالت تحظى إلى الآن باهتمام بالغ ، وتقف ما بين مؤيد ومعارض ، ولم يتم الوصول بعد إلى حلول جذرية أو حاسمة حول هذه القضايا .

وتنطلق هذه الدراسة من عدة أفكار أو محاور ننبه إليها :

- مدخل عام أو تمهيد عن التطور الفكرى وروح العصر ، الوضع الاجتماعي للمرأة فى عصر مل ، تأثير هذا الوضع على تصور المجتمع للمرأة ، مكانة مل كرائد للفكر الليبرالى التنويرى الحر .

- الحرية بوصفها الدعامة الأساسية التى لا يمكن إعطاء فهم متوازن لفكر مل عن المرأة بدونها .

- " المرأة فى فكر مل " هذا المحور يشكل الركيزة الأساسية فى هذا العمل ، ويناقش عدة قضايا :

(١) المساواة بين الرجل والمرأة .

(٢) تحرير المرأة عن طريق العلم والعمل .

(٣) مساهمة المرأة فى الانتخاب ، المشاركة فى القضايا السياسية العليا .

(٤) الزواج .

- ماذا تكسب المرأة والمجتمع بحرية المرأة .

ما المزايا التى تعود على المجتمع من عمل المرأة وحريتها .

- تعقيب على هذه القضايا .

هذا العمل يحاول أن يقدم صورة واضحة عن مفهوم " حرية المرأة فى فكر مل " ، تتضح فيها ما للحرية لقيمة ، وما للمرأة من أهمية بالغة فى تاريخ الفكر عامة ، والفكر الراهن على وجه الخصوص .

ويعد هذا البحث فاتحة لمزيد من الجهود البحثية فى هذا المجال ، ونأمل أن يسهم هذا العمل فى الدعوة إلى الاهتمام بالمرأة ، وأن يلقى الضوء على بعض ما أثير فيه من اشكاليات .



(١) مـــدخل عـــام

التطور الفكرى وروح العصر (١٨٠٦ - ١٨٧٣) :

- يعد مل من أبرز الفلاسفة الانجليز فى القرن التاسع عشر ، وهو الذى حمل لواء الفكر التجريبى فى هذا القرن ، وكان مل سياسياً حراً ممثلاً للفلاسفة الراديكاليين [١] .

وتمثل المرحلة الأولى من حياة مل روحاً علمية مبكرة وسعة إطلاع متميزة ، فقد تعلم فى هذه الفترة على يد والده دون الالتحاق بمدرسة ، ورغم هذا كانت حياته حافلة بكل ألوان المعرفة والتفتح الذهنى وفى عام ١٨٢٠ سافر " مل " إلى فرنسا ، والتحق هناك بكلية العلوم فى مونبلييه Monpellier ، وقد هيأت له هذه الرحلة التى استمرت لمدة عام جواً من الحرية كان قد إفتقده فى وطنه ، كما أدرك افتقار مجتمعه الانجليزى إلى المشاعر السامية والوجدانات الرفيعة التى وجدها فى المجتمع الفرنسي[٢] .

ويرى بريتون Britton أن سن الثالثة عشر هى المرحلة التى تكونت عندها شخصية مل الفكرية ، فالقراءات اللاتينية ، الحساب ، المنطق ، الاقتصاد والعلوم التجريبية هى التى أثرت فيه أعظم تأثير

- لقد كانت نشأة مل الإنعزالية من أسباب أزمته النفسية وإفتقاره إلى صديق حقيقى ، كذلك عدم تنشئته على أسس دينية سليمة لأن

---

(1) J. S. Mill : Autobiography . p. 13 .

(2) Hayek : J. S. Mill and Harriet Tayor . p. 31.

أباه لم يكن متديناً ، بل كان ينبذ المعتقدات الدينية بحجة أنه من غير الممكن أن يكون هذا العالم بشروره ومساوئه الكثيرة من صنع خالق .

– هكذا وجد مل سعادته الشخصية فى الإصلاح العام كهدف أول لحياته ، وظل مؤمناً بذلك حتى عام ١٨٢٦.

المرأة فى حياة مل :

فى عام ١٨٣٠ التقى مل بمسز تايلور ، وتعد هذه المرحلة ذات دلالة خاصة فى حياته ، لما لهذه المرأة من تأثير على حياته المقبلة بأكملها ، حيث ارتبط بها رباطاً عاطفياً وثيقاً ، وكان يعدها من أعظم الشخصيات التى حظيت بتقديره واحترامه(١) .

كان لمسز تايلور تأثير واضح على فكر مل الذى كان يعتقد فى ذكائها وعقليتها المفكرة العظيمة ، ويذكر مل أنها شاركته فى تأليف بعض مؤلفاته : " فى الحرية On Liberty ، كتابه علم الاقتصاد السياسى Political Economy ، وقد كتب مل فى إحدى مذكراته اليومية بتاريخ ٢٥ فبراير ١٨٥٤ : "إننى أدين بعظيم أفكارى لتأثيرها".

وقد تزوج بها عام ١٨٥١ ، وبدأ معها عهداً جديداً يقوم على التضامن العاطفى والاستقرار النفسى والتعاون الفكرى .

– لقد توفيت عام ١٨٥٨ وبوفاتها أدرك مل أن ربيع حياته قد انعدم.

(1) J. S. Mill : Autobiography . p. 26 .

وفى الخطاب الذى أرسله مل ليعلن لأصدقائه بانجلترا خبر وفاتها يقول :

... زوجتى ، رفيقة مشاعرى ، ملهمة أفكارى ، مرشدتى فى أعمالى، قد توفيت[١] .

الوضع الاجتماعى للمرأة فى عصر مل :

إرتبط كتاب مل " عن الحرية " بكتابه التالى : استعباد النساء ارتباطاً وثيقاً ، وقد خصص الكتاب الأول للدفاع عن الحرية بصفة عامة : الحرية الاجتماعية ، الفكرية ، الفردية ، حرية الفكر والمناقشة ، حدود الحرية داخل المجتمع . ... الخ فى حين انصب كتابه التالى - تقريباً . على موضوع واحد هو الحقوق المشروعة التى حرمت منها المرأة فى عصره : فكتابه استعباد النساء الذى نشر عام ١٨٩٦ هو دفاع عن المرأة والمطالبة بتحريرها وعدم استعبادها .

- وفى أول لقاء له مع هارييت تايلور Harriet Taylor دار الحوار بينهما حول وضع المرأة ودورها فى المجتمع الانجليزى ، والعلاقات الاجتماعية القائمة بين الجنسين ، وقد إتفقا - تقريباً - على أن الوضع الحالى بالغ السوء ومن ثم طالبا بدور أكثر إيجابية للنساء ، وراحا يبشران بتحرير المرأة والمطالبة بحقوقها السياسية ، وإتاحة جميع الفرص للنساء للعمل على قدم المساواة مع الرجل[٢] .

---

(1) Ibid : p. 263 .

(2) Alan Rayan : J. S. Mill : Routldge and keganpaul london. 1954. p. 154 .

وقد حاول مل - فى هذا الكتاب على نحو ما سنرى - تفسير الأصل الذى صدرت عنه الأوضاع الاجتماعية السيئة الحالية للنساء . إنما هو " قانون القوة " ، وقد حاول مل إدانة هذا المبدأ والكشف عن أنه مبدأ فاسد من جذوره لأنه يقوم على التبعية (تبعية النساء للرجال) وهو مبدأ ينبغى هدمه ليحل محله مبدأ المساواة الكاملة التى لا تسمح بوجود ميزة لجانب على آخر ، هذا المبدأ يعوق تقدم المجتمع ويمنعه من التطور(١) .

مكانة مل كرائد للحرية والمدافعين عن المرأة فى عصره :

من هذا يتبين لنا أن " مل" قد حظى بمكانة مرموقة بين المدافعين عن حقوق المرأة ، وقد ذهب " رسل " الابن الروحى لمل إلى الاشادة بموقفه بقوله :

" إن المرء ليستطيع أن ينظر إلى كل ما فى القرن العشرين من رعب وآثام بعين الفيلسوف الراديكالى والعقلانى ، ولا يستطيع أحد أن ينكر مكانة مل كفيلسوف من أعظم فلاسفة التحرير فى القرن التاسع عشر ، ونحن مازلنا إلى الآن بحاجة إلى قراءة أفكاره الحرة واستيعابها وتمثلها والسعى الدائب نحو تحقيقها فى مجتمعاتنا العربية.

(١) سنعود إلى تفسير ذلك فى الجزء الخاص به .



(٢) الحريــــة

« ... إن من يدع العالم يختار له خطة حياته ليس فى حاجة إلى أى قدرة سوى قدرة القرود فى المحاكاه .. وفارق كبير بين تصرفات القردة، تصرفات الإنسان التى تصدر عن عقل ووعى ، وليس عن آلية حركية بحتة ، فإذا لم يستطع الإنسان أن يرقى على طريقته الخاصة فلن يرق على الأطلاق».

جدير بنا ونحن نتحدث عن حرية المرأة عند مل أن نقدم لها بدعوته إلى الحرية بوجه عام ، لأنها الدعامة الأولى التى أقام عليها أفكاره عن المرأة(*).

يعد چون ستيوارت مل من أكثر المتحمسين للحرية والمدافعين عنها ، ليس على المستوى النظرى فقط الذى تمثل فى كتابيه " الحرية " ،

(*) جدير بالذكر أن الطهطاوى(١٨٠١ - ١٨٧٣) يعد أيضا - فى الفكر العربى - رائداً لحركة اليقظة العربية الحديثة ، داعياً إلى الحرية والتنوير والانفتاح على العالم الغربي فى عصره .

ويعد كتابه " تخليص الابريز فى تلخيص باريز" دعوة إلى الحرية والأخذ بوسائل المدنية الموجودة فى الحضارة الأوربية - خاصة المجتمع الفرنسي.

قضية الحرية تشكل المحور الأساسي في هذا الكتاب ، كذلك تحتل الحرية مكانة رفيعة في كتابيه التاليين: " مناهج الألباب " ، " المرشد الأمين " الذي يخصص فيه فصلاً كاملاً عن الحرية . وهو يعلن فى حسم أن الحرية فطرية للإنسان ، منطبعة فى قلب الإنسان من أصل الفطرة .

" الحرية هي أعظم الحقوق ، ووسيلة للسعادة ، وينبغى أن تحظى بها كل الأمم"، الأمة الحقة هى التى تحب حريتها .

(راجع فى تفصيل هذا : تخليص الابريز : ص ٤ ، مناهج الألباب : ص ٢٣٢ ، المرشد الأمين ص ٩٢ : ٩٥ ، ١٢٨ ، ١٢٩) .

- عرف الطهطاوى الحرية وهو بصدد الحديث عن مواد الدستور الفرنسى لعام ١٨١٨ بقوله : سائر الفرنسيس مستوون أمام الشريعة .

وهذه المادة من القانون تقوم على إقامة العدل وإنصاف المظلوم . فما يسمونه بالحرية هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل والإنصاف (تلخيص الابريز : ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٨٠).

وقد عرف الطهطاوى الحرية فى كتابه : " المرشد الأمين بقوله إن الحرية هى إباحة العمل دون مانع ولا معارض ، كل فرد يتصف بأنه حر ، والتضيق عليه يعد حرمان من حقه ، فى أن يتصرف كما يشاء فى نفسه ووقته وشغله .

ومن حقوق الحرية أن لا يجبر انسان أن ينفى من بلده أو يعاقب فيها إلا بحكم شرعى أو سياسى ، وأن يتصرف فى ماله كما يشاء ، ولا يحجر على فكره ولا يكتم رأيه ... بشرط أن لا يخل بما يقوله أو يكتبه بقوانين بلده .

(المرشد الأمين : الباب الرابع : الفصل الخامس ص ١٢٧ ، ١٢٨ وما بعدها) .

"استعباد النساء" ، وغيرهما ، بل على المستوى العملى عندما حاول أن يدخل معترك الحياة السياسية ، وانتخب عضواً فى البرلمان عن دائرة وستمنسر فى لندن .

- يؤكد مل فى تعاليمه الأخلاقية والسياسية والاجتماعية على حقيقة الحرية الإنسانية Human liberty

يقول مل :

" يجب أن تتعلم الأمم الحديثة الدرس الذى يؤكد أن رفاهية البشر وسعادتهم يجب أن تخلق بوسائل العدل والحكم الذاتى للمواطنين"(١).

يرى مل أن نمو الفردية هو الشرط الضرورى للحرية والاختيارية ، كما يؤكد أن كل فرد لابد وأن يكون لديه الحرية كي ينمى قدراته طبقاً لإرادته الخاصة ، بشرط أن يتم هذا دون تدخل - أو ضرر - فى حرية الآخرين(٢) .

فحرية الفرد يجب أن تكون محددة ، فهى لم توجد لتضايق الآخرين(٣) .

- أقر مل إذن مبدأ الحرية والفردية ، ولكنه رأى أن هذه الحرية ليست مطلقة ، ولكنها مقيدة بالتزامات الفرد تجاه المجتمع والآخرين .

---

(1) R. P. Anschutz : The philosophy of J. S. Mill . p. 11 - 21 .

(2) , (3) : on liberty : p. 50 .

فالفرد يتمتع بكامل حريته طالما أنه لا يؤذى مشاعر الآخرين ، ولكن المجتمع لابد أن يحمى الأطفال والشباب الذين هم دون سن الرشد ، كذلك الأنماط غير المتحضرة .

فالمجتمع لا يتدخل الا حينما توجد خسارة أو مخاطرة إما للفرد أو للمجتمع[١] .

أقر مل إذن حرية الفرد بشرط ألا تتعارض أو تصطدم بمصالح الآخرين ، وحين يحدث ذلك فمن حق المجتمع التدخل .

على المجتمع أن يؤكد على قيام كل فرد بواجباته والتزاماته المفروضة عليه بوصفه كائناً إجتماعياً ، ولكل من الفرد والمجتمع مطالب مشروعة يجب إحترامها . والهدف من هذا ألا يزعم المجتمع لنفسه الحق فى كل شىء[٢] .

– من هذا نتبين أن مل لم يقصد بالحرية التحرر مطلقاً من السلطة أو المجتمع بل أكد الحرية بوصفها النمو الفردى وعمل المجتمع أن يساعد على هذا ويزيل العقبات . وهنا يكون تدخل الدولة أو المجتمع فى أضيق الحدود كما يجب حماية الحرية الشخصية وإطلاق حرية العمل : Laizzez Faire : المبدأ هو : دع الناس يرعون شئونهم الخاصة فهم أقدر على رعايتها على أحسن الوجوه ، ولاتترك الحكومة تتدخل إلا لمصالح الكل"[٣] .

---

(1) Ibid : p. 51 , 74 .
(2) On liberty : p. 322 - 323 .
(3) Ibid . p. 354 .

والحرية الإنسانية التى يعنيها " مل " إنما تشتمل أولاً على ميدان الضمير الداخلى : حرية الفكر والشعور فى جميع المسائل العملية أو التأملية ، حرية الدين أو الاعتقاد ، حرية الأذواق والهوايات ، حرية وضع خطة لحياتنا تتفق مع طبائعنا الخاصة وأن نفعل ما نريد ونحن مسئولون عن هذا الفعل دون معوقات من الآخرين ، ولا يكون المجتمع الذى لا تحترم فيه هذه الحريات حراً أيا كانت حكومته .

" إن كل إنسان هو الحارس على صحته ، بدنياً أو عقلياً أو روحياً ، إن الجنس البشرى يكسب بالسماح لبعضه البعض أن يعيش كما يحلو له أكثر مما يكسب من إرغام كل فرد على أن يعيش كما يحلو للآخرين"(١) .

حرية الفكر والمناقشة : حرية الرأى والاعتقاد

يدافع مل عن حرية الرأى والتعبير فيقول :

" ... فإذا كان الجنس البشرى كله ، باستثناء شخص واحد مجمعاً على رأى ، وشخص واحد فقط يخالف هذا الرأي ، ما كان الجنس البشرى محقاً فى إسكات هذا الشخص الواحد أكثر مما لهذا الشخص الواحد من حق فى اسكات الجنس البشرى إذا كانت لديه القوة .

---

(1) J. S. Mill : On liberty. p. 37 : 38 .

فالضرر الناتج عن إخماد التعبير عن رأى ينطوى على سرقة من الجنس البشرى للأجيال الحالية والقادمة على السواء " لهذا فليس من حق أى هيئة تشريعية أو تنفيذية أن تفرض على الناس اعتناق رأى لايرتضونه أو توجب عليهم الإيمان بمعتقد لا يريدونه ، بل ليس من حق الشعب نفسه أن يخرس الألسنة التى تنطلق بغير ما يرتضيه[1] .

– ويدلل مل على خنق حرية الفكر والرأى بأحداث التاريخ فيقول : " إعدام سقراط الذى عرفه التاريخ بوصفه من معلمى الفضيلة قتله مواطنوه بتهمة المروق والفساد ، سقراط قد اعدم ولكن تعاليمه وفلسفته باقية . وعدم التسامح الاجتماعى لا يقتل أحداً ولا يستأصل فكرة ، ولكنه يدفع الناس إلى اخفاء آرائهم في صور أخرى .

" إذا أريد لمعلمى الجنس البشرى أن يعرفوا كل ما ينبغى أن يعرفوه ، فلابد من كفالة الحرية فى كل ما يكتب وينشر بلا قيود والحقيقة لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق الحوار والاختلاف فى الرأى ، لذا وجبت حرية الرأى والتعبير ضماناً لخير العقل البشرى[2] .

يقف الطهطاوي فى فكرنا العربى موقف مل فى قضية حرية الفكر والتعبير (حرية الرأى) .

من حقوق الحرية الأهلية أن لا يكتم رأى أى إنسان فى أى شىء ، بشرط ألا يخل بما يقوله أو يكتبه بقوانين بلده .

---

(1) Max lerner : Essential works of J. S. Mill : on liberty . p. 276 : 277.

(2) Ibid . p. 283 - 284 , 301 - 302 .

السبب المباشر لعزل الملك تشارل العاشر أنه حاول أن يضع حداً لحرية التعبير وحرية الصحافة وذلك بمخالفة الدستور والعودة إلى التصرف المطلق ، وفى هذا خيانة لمبدأ الحرية - فيما يرى الطهطاوى - أدى إلى عزل الملك .

المادة الثامنة من القانون تقول : " لايمنع انسان فى فرنسا من أن يظهررأيه ويكتبه ويطبعه بشرط ألا يضر الآخرين "* .

ويدلنا هذا على إعجاب الطهطاوى بالقانون الفرنسى الذى ينادى بالحرية حتى لو أدى هذا إلى عزل الملك .

حرية السلوك :

يرى مل أن حرية السلوك - الفعل - تقتضى أن يكون الفرد حراً فى تحديد أفعاله وسلوكه بشرط ألا يجعل من نفسه مصدر ضرر أو ازعاج لغيره من البشر . فحرية الفرد يجب أن تقيد بهذا الحد ، بحيث يضع الفرد أفكاره . موضع التنفيذ على مسئوليته(1) .

وتحقيقاً لحرية السلوك ، من المفيد أن يكون هناك إختلافاً فى تجارب الحياة كاختلاف الرأى تماماً .

فالحرية هى طبيعة الفرد الذاتية ورقيها لا عادات الناس وتقاليدهم . فالقدرات الخاصة بالإدراك والحكم والتمييز بين المشاعر والنشاط العقلى .. كل هذا لا يمارس إلا عندما يكون هناك اختيار .

---

(1) Max lerner : Essential work of J. S. Mill : on liberty p. 304 , 305 .

* (راجع تفصيل هذا من كتاب الطهطاوى : تخليص الابريز ص ١٧٢ ، المرشد الأمين ص ٨).

« ... إن من يدع العالم يختار له خطة حياته ليس فى حاجة إلى أى قدرة سوى قدرة القرود فى المحاكاه .. وفارق كبير بين تصرفات القردة ، تصرفات الإنسان التى تصدر عن عقل ووعى ، وليس عن آلية حركية بحتة ، فإذا لم يستطع الإنسان أن يرقى على طريقته الخاصة فلن يرق على الأطلاق»(١).

ما يريده مل هو القدرة والأصالة والإبتكار ، ونمو الفردية ، وهذا لن يتوفر إلا بوجود التربة الخصبة التى تساعد علي ذلك ، أى وجود الحرية ، البعد عن النمطية ، عدم محاولة تشكيل البشر على نمط واحد(٢) .

لابد اذن من القضاء على طغيان العادة الذى يقف عقبة فى كل مكان فى سبيل التقدم البشرى ويقاوم استقلال الشخصية(*) .

---

(1) , (2) Ibid . p. 306 - 307 , 310 - 314 .

(*) عرض الطهطاوى – فى كتابه المرشد الأمين – لأنواع الحرية : حرية الرأى ، حرية الاعتقاد ، الحرية المدنية ، السياسية ، حرية الفلاحة والتجارة والصناعة وهى مانعنيه الأن بحرية العمل والسلوك ، ورأى أنها أعظم حرية لأنها تؤدى إلى التمدن ، وهى كما عبر عنها التعبير الفرنسى المعروف دعه يعمل ودع التجارة تمر laiz é Fair, . laize . passé

والحرية عنده سواء أكانت حرية فردية أو جماعية ، إنما هي حرية مقيدة أو مسئولة ، السلطة مقيدة بالقانون ، الحرية محكومة بمراعاة مصالح الأخرين . وهذه الحرية التى تؤسس على قوانين العدل تؤدى إلى إسعاد البشر .

(راجع هنا المرشد الأمين : الباب الرابع : الفصل الخامس ص ١٢٨ ومابعدها ، د. محمد عمارة : الأعمال الكاملة للطهطاوى ، حـ ١ ص ١٧٠ .

فى هذه السطور التى عرضنا لها نجد أسمى تعبير عن الحرية عند مل : حرية الرأى والفكر ، حرية العمل والسلوك ، حرية الاعتقاد ... وهكذا يغتنى مفهوم الحرية وتتعدد جوانبه ، مع التأكيد فى كل هذا على النمو الحر للفردية والدعوة إلى الشخصية المستقلة التى تؤدى إلى الخلق والجدة والابتكار وتبتعد عن النمطية وطغيان العادات والتقاليد .

وإنطلاقاً من هذه الدعوة الصريحة إلى الحرية ، النزعة النقدية والاستنارة العقلية يأتى موقف مل من المرأة فى عصره ، ودعوته الصريحة إلى حريتها والمطالبة بمساواتها بالرجل فى كافة المجالات ، فى العلم ، العمل ، الأنشطة المختلفة ، تولى المناصب القيادية العليا .

وهذا ما سنعرضه فى الجزء التالى .

(٣) المرأة في فكر مل

جاء موقف مل من المرأة ، ودفاعه عنها - فى عصره - ومطالبته بمساواتها بالرجل مسايراً لمذهبه فى الحرية الفردية والمساواة .

ويمكن القول أن انتصار مل للمرأة ونضاله فى سبيل تحريرها ربما يرجع إلى :

- الحب الذى أثارته فى قلبه صديقته هارييت تايلور ، فكانت أفكاره عن المرأة من وحى هذا وتأثيره .

- عشقه للحرية منذ صباه ونضاله المستمر فى الدفاع عنها فكان انتصاره للمرأة تعبيراً عن هذا العشق للحرية . وامتداداً لها .

يقول مل :

" إن خضوع النساء الاجتماعى والسياسى للرجل إنما هو وضع بال من أوضاع الماضي لا يتفق مع المستقبل ، ويجب بالضرورة أن يختفى فالمخلوقات البشرية فى العالم الحديث لم تولد مقيدة بأغلال ، وإنما ولدت حرة تستخدم ملكاتها وما يتاح لها من فرص طيبة لتحقيق لمصير الذى تفضله[1] (*) .

---

(1) J. S. Mill : Subjection of women . p. 48 .

(*) فى هذا النطاق تطالعنا نظرة المجتمع القديم ، مجتمع العصور الوسطي للمرأة . كان هذا المجتمع يرى المرأة قد خلقت فقط لملاذ الرجل ، وقد مرت عصور وأجيال رسخت فى عقل المرأة أنها مخلوقة هامشية ، من ضلع لآدم ، فعاشت وهي تلتمس حق الحياة من ذلك الأصل الذى خرجت منه ، فى ظنها أنه متميز عنها فى أصل الخلقة .

وقد بين الله تعالى فى أول سورة النساء خطأ هذا الزعم :

{ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءاً} . =

(١) المساواة بين الرجل والمرأة : (رد مل على الوضع الاجتماعى للمرأة والمطالبة بتغييره)

أكد مل على مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة ، وعرض لهذا فى الفصل الأول من كتابه خضوع النساء Subjection of Women وهو يعترف منذ البداية أن قضية المرأة قضية يصعب مناقشتها ، فهى تتلخص فى إدانة المبدأ الذى ينظم العلاقات الاجتماعية القائمة بين الجنسين ، والكشف عن أنه مبدأ فاسد من جذوره لأنه يقوم على أساس تبعية أحد الجنسين (النساء) للجنس الآخر (الرجال) ، وهو مبدأ ينبغى هدمه ليحل محله مبدأ المساواة الكاملة التى لا تسمح بوجود ميزة لجانب على آخر[1] .

= عنصر المرأة أكرم من أن يمتهن أو يظن فيها أنها أقل من الرجل .

(راجع هنا : د. ابراهيم هلال : من بطولات المرأة فى القرآن الكريم ص د : ٩)، د. عائشة عبدالرحمن المفهوم الإسلامي لتحرير المرأة، ص ٦).

ويعد موقف الطهطاوى المتقدم من المرأة فى فكرنا العربى مصداقاً لخطأ هذا الزعم ، فعندما ترجم ، وهو فى باريس ، كتاب ديبيج Depping لمحة تاريخية عن أخلاق الأمم وعاداتها Moeurs et usage des nations ، عنوانه الجديد : "قلائد المفاخر في غريب عوائد الأوائل والأواخر" لم يقنع بدور المترجم فقط ، بل أدخل إضافات ، وكانت هذه العبارة التي أضافها الطهطاوى ، تعليقاً على مواقف بعض الشعوب من المرأة قديماً هذه العبارة التى وردت فى الفصل السادس " أنه كلما كثر احترام النساء عند قوم كثر أدبهم وظرافتهم .. " هذه العبارة التى توضح الموقف المتقدم للطهطاوى للمرأة واحترامه لها .

راجع (المرشد الأمين : الباب الثانى : الفصل الأول ص ٣٥٢ : ٣٦٧) .

(1) Ibid : ch. I p. 29 .

وهو يرى أن مبدأ التبعية وخضوع النساء ، الذى يعوق تقدم المجتمع ويمنعه من التطور ، قد تغلغل فى نفوس الرجال على نحو يجعل من الصعب مناقشته مناقشة واعية وذلك للأسباب التالية :

- الاعتراض على منح المرأة المساواة لم يؤسس على جدل عقلى وإنما هو متأصل فى أقوى الإحساسات والمشاعر .

- يرى مل أن المشكلة هى أن قضية الوضع السيئ للمرأة تدعمها العادات والتقاليد التى يقدسها الناس ، كما تدعمها المشاعر القوية .

" هذا الرأى الذى يخضع الجنس الضعيف بمقتضاه للجنس الأقوى، قد قام على النظرية وحدها ، ولم يُستمد من التجربة ، كما أن تطبيق هذا النظام لم يكن قط نتيجة ترو أو تدبر أو أية أفكار اجتماعية تؤدى إلى خير البشرية أو الصالح العام للمجتمع ، وإنما نبع من حقيقة أن كل امرأة - منذ فجر التاريخ - وجدت فى حالة عبودية لرجل ما بسبب ما يظن الرجال فيها من ضعف قواها العقلية[1] .

- التبعية - كما توجد حالياً - ليست نظاماً أصيلاً دعت إليه اعتبارات العدالة والمقتضيات الاجتماعية ، بل هو الحالة البدائية للعبودية التى استمرت طويلاً ولم تفقد أصلها الهمجى الذى يعتمد على قانون " الغاب" أو " الأقوى " ويرى مل أن هذا القانون قد انتهى أمره تماماً ،

---

(1) J. S. Mill : Subjection of women p. 31 - 32 .

وليس هناك من يدعو إليه أو يسمح بتطبيقه فيما يتعلق بالعلاقات بين البشر .

يقول مل :

" لقد كان هناك وقت حدث فيه تقسيم للجنس البشرى إلى طبقتين : السادة والعبيد . وكان هذا التقسيم يبدو لأكثر العقول ثقافة - طبيعياً ولا خجل منه .

إن أرسطوا بكل مداركه السامية وما أسهم به من نصيب فى تقدم الفكر البشرى ، كان يعتقد ذلك اعتقاداً خالصاً وبلا تردد ، وأقام هذا التقسيم على نفس الأساس الذى يقوم عليه عادة تأكيد سيطرة الرجال على النساء ، وهو أن هناك طبائع مختلفة للبشر ، طبيعة الأحرار ، طبيعة العبيد . وهناك نرى أن قانون القوة أساس طبيعى لممارسة السلطة(١) .

لهذا كله كان من الطبيعى أن أى خروج على قاعدة خضوع النساء للرجال - وهو عرف عام - أمر غير طبيعى . ولكن العادة - كما يرى مل - مهما كانت قوية فهى لا تصلح لأى إدعاء ، وهذا الوضع البالى من أوضاع الماضى لا يتفق مع المستقبل ويجب أن يختفى بالضرورة(٢).

---

(1) J. S. Mill : On liberty : p. 182 .

(2) J. S. Mill : subjection of women . p. 48 .

وهنا يتبين أن دفاع مل عن " المرأة " يشبه ما هو موجود فى كتابه " الحرية " حيث يدافع - فى صفحات طويلة - عن حرية الفرد التي يؤمن بها : " لايوجد شيء فى هذه الدنيا يستحق التضحية بحرية الفرد " .

ويعترف مل بأن هناك فروقاً عقلية بين الرجال والنساء ، ولكنها ليست سوى الأثر الطبيعى للإختلاف فى التربية أو الظروف الاجتماعية والاقتصادية ، وهى لا تدل أبداً على أى اختلاف جذرى خلقته الطبيعة.

يقول مل :

" ليس يجدى أن نقول أن طبيعة الجنسين تؤهلهما لوظائفهما ووضعهما الحالى ، فليس فى مقدور أى شخص أن يعرف طبيعة الجنسين مادمنا لم نرهما إلا فى علاقتهما الحالية . إن ما يسمى طبيعة النساء Nature of Women يعد شيء مصطنع نشأ نتيجة القهر من ناحية ، الدوافع الغير طبيعية من ناحية أخرى" .

إننا لا نعرف على وجه التحديد ما هى طبيعة الأنثى التى تختلف عن طبيعة الذكر ، وكل ما نعرفه أن شخصية المرأة تشكلت من نوع التربية التى نشأت عليها منذ الماضى السحيق .

مايتوهمه الناس من فروق جوهرية بين الجنسين مرده إلى الظروف الاجتماعية التى اكتنفت حياة كل منهما ، ولو كان التمايز بين الرجل والمرأة يعود إلى اختلاف طبيعة كل منهما ما احتاج الأمر إلى قوانين تحمى سيادة الرجل ، وتكفل عبودية المرأة ، وإذا كانت طبيعة المرأة

هى التى عاقتها عن أداء بعض الوظائف ، فلماذا لجأنا إلى سن القوانين لإقرار عجزها وإزالة أهليتها لمزاولة هذه الوظائف ؟

إن العدالة كانت تقتضى أن نترك المرأة والرجل منذ الماضى - فى ميدان المنافسة الحرة ، حيث يمضى كل منهما إلى حيث تؤهله قدراته.

وما من شك أن البشرية لو غيرت الأوضاع الاجتماعية الظالمة التى عاشت المرأة فى ظلها لما وجدنا اليوم فروقاً جوهرية - من الناحية العقلية والجسمية - تميز بين المرأة والرجل . ولكن قانون القوة لايزال قاعدة العلاقة التى تقوم بين الجنسين ، وهو قانون يحتفظ بكل آثاره الهمجية ، ومع هذا يرتضيه عالم متمدين ينزع إلى الرقى والتقدم[1] .

ويختتم مل الفصل الأول من كتابه بقوله :

" والمفروض أن الرجال يرون أن العمل الطبيعى للمرأة هو عملها كزوجة وأم ، وأقول المفروض لأن المرء يستطيع أن يخرج بأن رأى النساء مناقض لذلك تماماً .

وإذا نظرنا للوضع الحالى للمجتمع ، وإذا وجدت أية وسيلة للعيش أو رغبة فى عمل آخر يتفق مع ملكاتهن - أى إذا كن أحراراً - فإنهن سيأخذن اتجاهاً آخر لأنهن مرغمات على وضعهن الراهن"[2] .

وإذا كان مل قد عرض لقضية المساواة بين الرجل والمرأة إنطلاقاً من الوضع الاجتماعى السيء للمرأة والمطالبة بتغييره ، فإن الطهطاوى

(1) Ibid : p. 48 - 49 .
(2) Ibid : p. 56.

– فى الفكر العربى قد وقف هذا الموقف من قضية المساواة ويؤكد الطهطاوي على هذا المبدأ حين يقول :

" إن مكانة المرأة والرجل فى العالم كبشر إنما هى بالعقل الذى يمتازون به عن باقى المخلوقات ، ومن الواجب العناية بهذا العقل وتثقيفه وإمداده بالتربية "(١) .

ولكن إيمان الرجل بالمساواة لم يجعله يتغافل عن الفروق الطبيعية بين الرجل والمرأة ، فهو يرى أن المرأة قد تكون ضعيفة البنية ، ولكن هذا الضعف لا يفضى إلى ضعف فى قدراتها العقلية ، بل ينشأ عنه قوة فى هذه القدرات والامكانيات فالمرأة أكثر ذكاء أو قدرة على الادراك ، وهى تفهم بالإشارة واختصار العبارة ما لا يكاد الرجل يدركه إلا بصريح العبارة(٢) .

فالمساواة بين الرجل والمرأة لا يلغى الفروق الطبيعية بينهما – كما قال مل – ولا تتصور المرأة الواعية أن الذى بينها وبين الرجل منافسة أو خصومة ، وذلك لأن المنافسة إنما تكون بين ندين أو متناظرين ولكن الرجل والمرأة متكاملان ، يحتاج كلٌ منهما للآخر تحقيقاً للوجود الكامل.

---

(١) أحمد أحمد بدوى : رفاعة الطهطاوى : لجنة البيان العربى ١٩٥٠ ص ٢٩٩ : ٣٠٨ .
(٢) المرشد الأمين : ص ٤١ : ٤٨ .

كذلك فإن دور المرأة كزوجة وأم لايتعارض مع عملها ونجاحها فى أي عمل آخر . فالمرأة أقدر من الرجل على تحمل الصعاب ومتاعب الحياة وتخفيف الآلام ، وقد جعل الله لها القدرة على ذلك .

فنحن نؤمن بالمســاواة بين الرجل والمرأة ولكن فى الإطار الذى لايفقدها أهليتها وطبيعتها ، وذلك مراعاة لطبيعة كل منها ، مراعاة للصالح العام ، الأسرة ، المرأة نفسها(١) .

---

(١) أنظر : المساواة بين الرجل والمرأة فى الحقوق المدنية ، التعلم ، الثقافة ، العمل ، من كتاب د. على عبدالواحد وافى : المرأة فى الإسلام ط٨ دار نهضة مصر ١٩٧٩ ، ص ٧ : ٤٢ .

حرية المرأة
في العلم ، العمل ، الزواج

على الرغم من أن المرأة جاهدت طويلاً من أجل الحصول على حريتها إلا أن الفضل فيما حققته لا يرجع إليها وحدها، بل نجد فى كل عصر شخصيات بارزة حملت على عاتقها لواء قضية المرأة والدفاع عن حقوقها(١)(*) .

إيمانا بمبدأ المساواة بين الرجل والمرأة ، طالب " مل " بتعليم النساء على قدم المساواة مع الرجال وفى نفس فروع المعرفة التى يتعلمها الرجال.

أما عن عمل المرأة فنراه يقول :

" إن تحريم العمل على النساء لا يقتصر ضرره عليهن فحسب ، بل يلحق أيضاً بمن يستفيد من خدماتهن" ويعتقد مل أن القدرة على العمل والكسب أمر جوهرى لكرامة المرأة كذلك ، يؤكد مل أن هناك مبدأ هاماً تحتمه فكرة المساواة العادلة بين الرجل والمرأة، وهو السماح لها

(*) بدأت الدعوة إلى تحرير المرأة فى فكرنا العربى مع رفاعة الطهطاوى (١٨١٠ – ١٨٧٣) والذى اتفق على اعتباره أول من تعرف من المصريين الذين أنشئوا فى مصر، وربما فى العالم العربى كله – مدرسة فكرية منظمة بالمعنى الشامل ، لها منهجها وفلسفتها وغايتها وسائر مقدماتها الشكلية والموضوعية التى تخرج عن الإطار الذي ظل متوارثاً فى العالم العربى ، من العصور الوسطى حتي أوائل القرن التاسع عشر.

ومع بداية القرن العشرين تجددت الدعوة إلى تحرير المرأة والتى يعد قاسم أمين عمادها الأول .

(1) J. S. Mill : subjection of women. ch. 111 . p. 77 - 78 .

بالعمل فى جميع الوظائف والمهن التى ظلت حتى الآن حكراً على الرجال . وهو يرى أن هناك دوافع أدت إلى تحريم عمل المرأة منها - رغبة الرجل فى الإبقاء عليها داخل الحياة المنزلية ، لأنه لم يعتد بعد فكرة العيش مع ند أو نظير له .

" من الخير للمرأة ألا تعمل ، لأنها لن تقدر على العمل من ناحية وذلك بسبب ضعفها ، ولأنها من ناحية أخرى سيكون نجاحها أكثر فى الأعمال المنزلية، كما أنها ستجد السعادة الحقيقية والراحة فى المنزل".

إن النساء - على وجه العموم - أقل موهبة من الرجال من حيث القدرات والملكات العقلية ، وأن أذكى النساء أقل فى قدراتها العقلية من أتفه الرجال الذين يتولون حالياً الوظائف المختلفة(*) .

(*) هذه هى الحجة التى تساق ضد عمل المرأة ، وهى فى الواقع فكرة ارسطو التى جعل فيها المرأة مخلوقاً أضعف فى جميع القدرات من الرجل ، وهو أحياناً يقول عنها أنها ذكر مشوه أو ناقص . هذه الفكرة لايزال لها رواج فى المجتمعات العربية لأنها صادفت هوىً فى نفوس الرجال ، وهى تنبع أساساً من مصلحة الرجل ، هذا على الرغم من أن الإسلام لم يقل بضعف قدراتها بل أشاد برجاحة عقلها ومهارتها فى إدارة دفة الحكم وشئون الدولة ، على نحو ما جاء فى قصة بلقيس ملكة سبأ .

وقد كانت هذه الفكرة رائجة فى عصر رفاعة ، وما قبله ، حيث كان الفكر السائد لأهل العصور الوسطى يرفض السماح للمرأة أن تتعلم أو تعمل ، لأن هذا مكروه فى حق النساء .

ويرى الطهطاوى أن هذه العقلية الجاهلية التى لازالت قائمة لدى هؤلاء الخصوم - أعداء المرأة - هى مبعث معارضتهم هذه ، فالعادات البدائية الموروثة والتقاليد غير المتحضرة ، هي السبب ، وأن الناس لو جربوا عادات غيرها لاعتادوا عليها ، كما هم معتادون اليوم على الموقف المناهض لتقدم المرأة. =

ويرى مل أن هذه الحجة – التى استند إليها أعداء المرأة – باطلة لأن تجربة العصور الماضية والحديثة ، أكدت قدرة النساء على القيام بنجاح فى أى شىء ، بل وبطريقة مشرفة .

يقول مل :

" حتى إذا كنا نستطيع الاستغناء عنهن ، فهل مما يتفق مع العدالة أن ننكر عليهن حقهن العادل من الامتياز المشرف والتفوق أو ننكر حقهن العادل فى اختيار المهن الخاصة بهم ما لم يكن فيه إضرار بالآخرين ؟

وينتهى مل من ذلك إلى القول بأنه ليس من العدل أو الإنصاف ولا من الاخلاق أن ننكر حق النساء – مثل بقية الموجودات البشرية – فى اختيار العمل الذى يقمن به تبعاً لما يفضلنه على مسئوليتهن . ويعد هذا تطبيقاً عملياً لمبدأ الحرية الذى نادى به مل ودافع عنه فى كتابه " الحرية " من قبل.

وقد وقف الطهطاوى من قضية تعليم المرأة وعملها موقفاً متقدماً بالنسبة لعصره ، شبيهاً بموقف مل ، وذلك أيضاً إيماناً منه بمبدأ

= (راجع هنا : المرشد الأمين : الباب الثالث : الفصل الثالث ، د. محمد عمارة : الأعمال الكاملة للطهطاوى ج٢ ص ٢٠٧ : ٢٠٩ .

د. امام عبدالفتاح : ارسطو والمرأة ، القاهرة ١٩٦٦ .

د. ابراهيم هلال : من بطولات المرأة فى الإسلام ، مكتبة النهضة ١٩٨٥ ، ص ١١: ١٨ .

الحرية لكل فرد ، والمساواة فى الحقوق ، فهو لم يحدد لتعليم المرأة آفاقاً تحدد دائرة حياتها بالمنزل والأولاد ، بل ربط العلم عندها بالعمل الذى يمكن أن تقوم به على قدر طاقتها وقدراتها .

" لقد اقتضت التجربة فى كثير من البلاد أن نفع تعليم البنات أكثر من ضرره ، بل لا ضرر فيه أصلاً . والبلاد التى تتعلم فيها البنات والبنين على قدم المساواة هى أقوى البلدان " .

هذا التعليم يؤدي إلي تنوير العقل بمصباح المعارف ، التخلق بالأخلاق الحميدة ، وهذا هو أجمل صفات الكمال ، كذلك تعليم المرأة يبعدها عن سخف العقل ويجعلها أكثر قدرة على المشاركة فى إبداء الرأى .

" إذا كان تعلم الأدب حسن فى الرجال ، فهو أحسن فى النساء لما فيهن من الرقة الطبيعية والمحاسن المعنوية ، فهى بالأدب جميلة حسناً ومعنى " .

العلم يهيئ المرأة سبيل العمل ، الذى يشغلها عن البطالة فإن فراغ يدها من العمل يشغل لسانها بالأباطيل وقلبها بالأهواء .

" العمل يصون المرأة عما لايليق ويقربها من الفضيلة "(١) .

حق الانتخاب ، تولى المرأة للمناصب القيادية العليا

ترتب على قضية عمل المرأة عند مل مناقشة " إقتصار الوظائف الهامة على الرجل ، تحريم هذا على المرأة " .

---

(١) المرشد الأمين : ص ٦٦ وما بعدها .

ويرى مل إنطلاقاً من مبدأى الحرية والمساواة " أنه ليس من العدل أن تحرم على أشخاص معينين مهنة الطب أو المحاماة أو عضوية البرلمان، لأن الضرر الناجم عن هذا التحريم لا يقع على عاتق هؤلاء الأشخاص وحدهم ، بل يلحق أيضاً بمن يتعاملون معهم لأنهم سيحرمون من ثمار المنافسة .

لهذا يرى "مل" إن من حق المرأة أن تشارك الرجل فى العديد من الوظائف ، منها حق التصويت فى الانتخاب البرلمانى Sufftage .

يقول مل :

" إذا كنا نعطى المرأة الحق فى اختيار الزوج ، فمن الأجدر أن نعطيها الحق فى إختيار من سيتولون حكمها وإدارة الأمر فى بلدها . والنساء فى حاجة لحق الانتخاب كوسيلة لحماية النفس ، وضمان guarantée لهن بالمعاملة العادلة المتساوية .

وفيما يتعلق بصلاحية النساء ، ليس للإشتراك فى الانتخاب فحسب ، بل ولتولى الوظائف العامة وممارسة المهن ، فإن أية امرأة تنجح فى مهنة تثبت بهذا أنها كفؤ لها ، ولهذا فإن القوانين التى تغلق الباب فى وجه هذه الاستثناءات لا يمكن تبريرها ، لأن المصلحة الاجتماعية تستلزم ذلك ، وكفاءة المرأة ليست فى حاجة إلى منافسة ، والقانون الذى يستثنى الرجل الغير صالح فى وسعه أن يستثنى المرأة أيضاً(١) .

---

(1) J. S. Mill : subjection of women . p. 80 .

ويستشهد البعض على تفوق القدرة العقلية عند الرجال عن النساء ، استناداً إلى أن مخ الرجل أكبر حجماً من مخ المرأة ، ويجيب مل على ذلك بأن هذا أمر مشكوك فيه ، وهذا المعيار يؤدى إلى نتائج غريبة . فالرجل الطويل الضخم - على هذا الأساس - لابد وأن يكون متفوقاً جداً فى الذكاء عن الرجل الصغير الحجم ، ولابد أن الفيل أو الحوت متفوقاً بما لايقاس على البشر .

ويسخر "مل" من هذه الشكوك ، ويرى أن كفاءة العضو لا تتوقف على حجمه بقدر ما تتوقف على نشاطه أيضاً ، ومن الخلف المحال أن نبقى على هذه الخرافات أو نتمسك بها[1](*) .

لاشك أنه كانت هناك عباقرة - على مدار التاريخ - من النساء سواء فى العصور القديمة أو الحديثة - فى مجالات مختلفة كالسياسة والفن والأدب ، وذلك برغم القيود والظروف الاجتماعية التي تعمل فيها المرأة .

فعند الاغريق نجد مثلاً ميرتس Myrtis التى قيل عنها أنها معلمة بندار Pindar ، وكورينا Corinna - تلميذته - التى انتزعت منه جائزة

(1) Ibid : p. 87 - 92.

(*) يبدو أن هذه الفكرة ظلت قائمة حتى القرن الحالى إلى أن حطمها اينشتين (١٨٧٩ - ١٩٥٥) بعد موته عندما درس العلماء " مخه" الذى تبرع به ، واتضح لهم أنه أصغر من الحجم المألوف ومن ثم ظهرت نظرة جديدة تقول أن العبقرية لا تكمن فى ضخامة المخ بل فى التجاعيد وعمقها فى المخ البشرى ، وهنا أصبح صغر حجم المخ لدي المرأة لا علاقة له بذكائها".

راجع هنا د. إمام عبدالفتاح : استعباد النساء . ترجمة ص ١٢٠ .

الشعر خمس مرات ، أسبازيا Aspazia التى قيل أن سقراط كان يلجأ إليها فى طلب العلم(*) .

وفى ميدان الأدب والفن لاتقل أعمال النساء أصالة عن أعمال الرجال : " لايوجد فى الأدب الحديث كله أفضل بياناً فى نقل الفكر من أسلوب مدام دى ستايل Madame de stael ١٧٦٦ - ١٨١٧(أديبة وناقدة فرنسية اشتهرت فى عهد لويس السادس عشر بصالونها الأدبى).

كذلك نثر ساندفينا Sandivina التى يؤثر اسلوبها الرشيق فى الجهاز العصبى كسيمفونية من سيمفونيات هايدن أو موتسارت Mozart (١٧٥٩ - ١٧٩١) (١)(**) .

وفى ميدان السياسة أيضاً يسوق مل نماذج عديدة يؤكد بها تفوق النساء .

يقول مل : " أنه لمن أعجب العجب أن تكون الأشياء الوحيدة التى تحرمها القوانين القائمة على النساء هى الأشياء التى أثبتن أنهن

(*) بندار (٥٨١ - ٤٣٨ ق.م) أعظم الشعراء الغنائيين عند اليونان.
كورينا (شاعرة غنائية يونانية عاشت فى عصر الشاعر بندار) .

(1) Ibid p. 92 - 95.

(**) مؤلف موسيقى نمساوى وضع ٤١ سيمفونيه ، ويعد أحد أعظم عباقرة الموسيقى فى جميع العصور ، من أشهر أعماله زواج فيجارو عام ١٧٨٦ ، أوبرا دون جيوفانى عام ١٧٨٧.

يستطعن القيام بها بمهارة . ولولا أن الملكة فيكتوريا Victoria (١٨١٩ - ١٩٠١) ورثت عرش انجلترا ، أو الملكة إليزابيث ، لما أمكن أن يعهد إليهما أحد بأصغر الواجبات السياسية التى أثبتت أنهما كفء لأعظم الواجبات .

فالملكة اليزابيث قد حكمت انجلترا ، وكان عهدها من أزهى العصور فى التاريخ الانجليزى ، كذلك جان دارك القديسة والبطلة الفرنسية التى حاربت الانجليز ، الملكة فيكتوريا التي لقب العصر بأسمها " العصر الفيكتورى " .. كل هؤلاء أثبتن جدارة فى الحكم وقدرة على تيسير أمور الدولة رغم الفرص الضئيلة التى اتيحت لهن ، بل وكذلك تفوقهن فى حالات كثيرة ، وتميزهن بالحزم والحيوية والذكاء والشجاعة(*).

(*) هناك الكثير من الملكات فى التاريخ فى الشرق والغرب : وقد جمعت الكاتبة الانجليزية " ليديا فارمى" فى كتابها " أشهر ملكات التاريخ " ست عشرة ملكة ممن خلد التاريخ ذكرهن مثل :

سميراميس ملك أشور (ماتت سنة ٢٠٩٩ ق.م) ، أيزابلا الأسبانية (١٤٥١ - ١٥٠٤) ، ماري ستيورت (١٥٤٢ - ١٥٨٧) ملكة اسكتلندا ، اليزابيث الأولى ، الثانية (ملكة انجلترا) وغيرهن كثيرات ، فضلاً عن أسماء مشهورة فى القرن العشرين مارجريت تاتشر ، بى نظير بوتو ، جولد مائير .

من أشهر الملكات فى التاريخ الإسلامى " الملكة شجرة الدر التى حكمت مصر بعد وفاة زوجها الملك الصالح ١٢٤٠ .

راجع هنا : د. إمام عبدالفتاح : أفكار ومواقف ص ١١٣ وما بعدها مكتبة مدبولى ١٩٩٦.

كذلك ما ورد فى القرآن الكريم عن بلقيس ملكة سبأ التي يصورها على أنها امرأة حكيمة تتسم برجاحة العقل وسداد الرأى ونفاذ البصيرة ، فهى لا تنفرد =

يقول مل : " إن الأمر الحاسم الذى يمكن أن نستنتجه من التجربة هو أن الأمور التى لا يسمح للنساء القيام بها هى نفسها التى أثبتن فيها كفاءة نادرة .

ويعتقد مل أن هذا دليل واضح على أنه إذا ما تركت الفرص لطبيعة النساء لتنمو بحرية وبلا قيود كالرجال - فلن تكون هناك فروق ولا إختلافات فى الطبائع والقدرات التى ستظهر وتعبر عن نفسها .

يؤكد مل أن المرأة تفوقت ليس فى الأعمال التى قامت بها فى ميادين مختلفة كما أوضحنا - فقط ولكن أيضاً فيما يتعلق بأفكارها .

فكثيراً من الأفكار المفيدة فى مجالات العلم والآدب والفلسفة والتى يظهرها الرجل وينفذها علي أنها أفكاره هو تكون فى الحقيقة أفكار صاحبتها وتكون هى مؤلفها الأصلى ، ولايكون دور الرجل فى هذه الحالة سوى التحقق من هذه الأفكار وإبرازها للعالم ويؤكد مل فى ذلك على حالته الشخصية فيقول :

= باتخاذ القرارات الخطيرة إلا بعد التشاور مع القوم وتبادل الرأى وبعد تدبر وروية وإمعان .

عندما ألقى إليها كتاب سليمان جمعت المستشارين وكبار رجال الدولة لتعرض عليهم هذا الكتاب قالت : يا أيها الملأ افتونى فى أمرى ماكنت قاطعة أمراً حتى تشهدون } النمل : آية ٣٢،

(راجع هنا : د. إمام : الفيلسوف المسيحى والمرأة فى ١٧٣وما بعدها ، كتاب د.ابراهيم هلال : من بطلوات المرأة فى الإسلام ص ١٣ : ١٨ .

" أعلن مل صراحة فى إهدائه كتاب الحرية إلى زوجته السيدة هارييت تايلور أنه مدين لها بأفضل أفكاره ... يقول: إلى ذكرى حبيبتى التى تبعث فى نفسى الحسرة والشجن ، ذكرى من كانت مصدر إلهامى كما كانت إلى حد ما المؤلف الذى كتب أفضل ما كتبت " .

يضيف مل إلى ذلك أن النساء رغم كل هذا النبوغ بقيت متخلفات عن الرجال ، والسبب فى هذا راجع إلى أنهن ليس لديهن الوقت الكافى لتحقيق هذا ، فوقت المرأة وأفكارها يتطلبان منها تحقيق عدد كبير جداً من المطالب فى المسائل العملية . فهناك أولاً الإشراف على شئون الأسرة ، والانفاق المنزلي ، كذلك يقع على المرأة عبء ترتيب إتصالات الأسرة بالآخرين أو ما يسمي بالواجبات الاجتماعية - كحفلات العشاء والموسيقى والدعوات المسائية والزيارات الصباحية وكل هذه الأمور . كل هذا بالإضافة إلى الواجب المرهق الذى يفرضه المجتمع علي النساء وحدهن بأن يجعلن أنفسهن موضع الاعجاب اجتماعياً ، وما يتطلبه هذا من حسن الملبس والذوق والأناقة . هذا النظام الاجتماعى وحده كاف لتعليل كل الاختلافات الواضحة بينها وبين الرجل[١] .

هكذا أكد "مل" على منح المرأة حقوقها كاملة إنطلاقاً من إيمانه بمبدأ المساواة بين الرجل والمرأة ، ورأى أنه لابد أن تشارك المرأة الرجل فى كل الوظائف إذا كانت صالحة أو مؤهلة لها ، ولا يستأثر

(1) J. S. Mill : subjection of women . p. 101 - 103 .

الرجل بالوظائف السياسية العليا ، كالبرلمان أو السلطة أو الملك ، لأن تجربة العصور القديمة والحديثة قد أثبتت أن الكثيرات من النساء قد أثبتن قدرتهن على القيام بكل شيء بطريقة ناجحة ومشرفة كما ذكرنا .

ولاشك في أن الكثير من الأدلة التى ساقها مل على تحرير المرأة قوى إلى حد كبير وقد نجم عنه تأثير ملحوظ ، ولسنا نبالغ حين نقول أن له الفضل فى تعليم المرأة العالى وفى الفرص المتزايدة التى تتاح الآن للجنسين كى يمارسوا مواهبهم العملية فى المجالات الاجتماعية وغيرها .

ومن الانصاف أن ننظر إلى هذا الإتجاه عند مل من خلال العصر الذى ظهر فيه ، عندئذ نرى كيف سبق مل عصره ، وبشر بتحرير المرأة قبل أن يفطن لمعنى التحرير قومه(*).

اشتغال المرأة بالمناصب السياسية العليا (السلطة - القضاء)

إذا كان مل قد أتاح للمرأة حق العمل فى المناصب السياسية العليا، فإن الطهطاوى فى فكرنا العربى - رغم أنه نادى بتحرير المرأة

(*) أول مؤتمر عقد للمطالبة بحقوق المرأة السياسية عقد فى أمريكا ١٨٤٨ ، وأول اتحاد لهذا الغرض بتاريخ ١٨٩٠ ، ولم يعترف الدستور الأمريكى الذى وقع عام ١٨٧٩ بحقوق المرأة السياسية إلا فى التعديل الذى أدخل عام ١٩٢٠ م وفى انجلترا بدأت المطالبة بحقوق المرأة ١٨٠١ ونشطت بعد صدور كتاب مل ١٨٦٠ ولكنها لم تثمر حصول المرأة على حق الانتخاب إلا سنة ١٩٢٨ .

وطالب بمساواتها بالرجل فى الكثير من المجالات إلا أنه فيما يتعلق بالعمل بالسياسة أو القضاء فهو يقول :

" إنه قد قضت الشريعة وقوانين غالب الممالك بقصر السلطنة علي الرجال دون النساء ، وأن النساء لا يتقلدن بالرتب الملوكية ولايلبسن التاج الملكى ، بل تكون المملكة متوارثة فى سلسلة الذكور إلا فيما ندر من الممالك المبيحة لذلك .

أما القضاء فليس لهن فيه حظ ولا نصيب(١) .

وموقف الطهطاوى هذا لا يقلل من قيمة المرأة عنده وإنما يرى أن يستهدف صيانة المرأة من متاعب هذه المناصب ومشاقها ، ولكن لا يرجع إلى ضعف قدرات المرأة .

---

(١) المرشد الأمين : الفصل الرابع من الباب الرابع . د. عمارة : الطهطاوى ص ٤٤٧ ، ٤٤٨ .

وهذه القضية التى أثارها "مل" وهى حق المرأة فى تولى المناصب السياسية العليا مثارة اليوم ، وهى تقف ما بين مؤيد ومعارض : ففى مقال بجريدة الأخبار الصادرة ١٥ أغسطس ١٩٩٨ تحت عنوان : " المرأة حقوق" ، رداً على فضيلة الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر بأنه أفتى منذ أيام أنه لا يؤيد تولى المرأة الوظائف والمناصب القضائية لأسباب عديدة .

وترفض كاتبة هذا المقال هذا الرأى فتقول : " رغم اقترابنا من نهاية القرن العشرين والاستعداد لاستقبال القرن الجديد ، إلا أن هناك من لايزال يرى أن المرأة أخذت أكثر من حقها ..

وفى جريدة الأخبار الصادرة بتاريخ ١٩٩٨/٨/٦ ما يخالف هذا الرأى .

كتبت د.آمال أحمد القطان (علوم قنا) تحت عنوان "اتركوا المرأة فى حالها " ما يفيد أنها تعارض أن تتولى المرأة منصب القضاء لاعتبارات خاصة بالمرأة نفسها . تقول: " توالت التحقيقات والمقالات التى تطالب بضرورة عمل المرأة فى مجال القضاء فى =

ونحن إذ نتحدث عن المرأة وحقها فى التعليم والعمل والحرية نتذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما أوصى صحابته بقوله :

" خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء " (أم المؤمنين عائشة) كناية عن تبحرها فى أمور العلم والدين .

= الوقت الذى طالب فيه كثير من الخبراء والمحللين النفسيين بضرورة عودة المرأة للبيت بعد انتشار ظاهرة العنف بين الشباب والأطفال .

لقد استطاعت المرأة فعلاً أن تغزو أغلب المجالات وأن تعتلى أعلى المناصب كوزيرة وسفيرة وعميدة ، وهذا يحسب لها ويؤكد أنها لاتقل شأناً في هذه المجالات عن الرجل ، بل إنها قد تتفوق عليه أحيانا ، أقول أغلب المجالات وليست كلها لأن هناك من المهن والأعمال لم يمنع أحد المرأة من العمل بها ولكنها تركتها ولم تشارك الرجل فيها ، كالتنقيب عن البترول ، غزو الصحراء ، لأن طبيعتها لا تتناسب مع هذه المهن ، وترى الباحثة أن منصب القاضى صعب عليها أن تتقلده لأنه لا يتناسب مع طبيعتها كأنثى . وتضيف : يا من طالبن بهذا المنصب رفقاً بالمرأة .

وفى بحث بعنوان : تطور خروج المرأة المصرية إلى مجال العمل : يناقش الباحث حق المرأة فى تولى الوظائف العامة ، يقول : " لا تمييز فى التشريعات بين الرجل والمرأة فى الحقوق ، والقانون لا يمنع المرأة من تولى منصب القضاء ولكن التقليد مستقر على عدم تعيين المرأة فى هذه الوظيفة استناداً إلى أنه لما كانت المرأة أقل مرتبة فى الشهادة من الرجل ، فإنها من باب أولى ليست أهلاً لتولى القضاء .

(نصار .ج : حقوق المرأة فى التشريع الإسلامى الدولى المقارن . ص ١٤٥ : ١٤٦)

وفى بحث بعنوان : تطور مشاركة المرأة المصرية فى الحياة العامة :

يناقش قضية حقوق المرأة بين الرفض والقبول : فالرأى المعارض يرى أن المرأة لا تصل أن تكون عضواً فى البرلمان أو أن تشترك فى الانتخابات أما المؤيدين فنجد د. طه حسين الذي كتب فى جريدة الجمهورية ١٩٥٦/١/٣١ مقال بعنوان : " تجن" جاء فيه ما يفيد أن الثورة ردت للمرأة حقها السياسى .

(راجع هنا كتاب تغير الوضع الاجتماعى للمرأة فى مصر المعاصرة ص ١٨٩ - ١٩٩ ، تأليف : محمد فرغلى فرج ، عبدالحليم محمود ، ناهد رمزى ، اشراف أ.د. مصطفى سويف .

ونتذكر أيضاً قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : إذ كان يخطب فى المسجد فجادلته أمرأة فى أمر يتعلق بمهور النساء وحينما اقتنع بوجهة نظرها وسداد قولها قال كلمته المشهورة : أصابت امرأة وأخطأ عمر .

والآن نتساءل : ماذا حققت المرأة بعد خروجها للعمل ؟

بمعنى آخر هل اكتسبت المرأة الحرية المرجوة بخروجها للعمل أم أدى بها إلى المزيد من القيود والمسئولية ؟ ماذا بعد خروج المرأة للعمل؟

نجيب على هذا فنقول أنه على الرغم من الاستقلال الاقتصادى الذى حققه العمل للكثيرات إلا أن هذا الاستقلال حمل فى طياته ثمناً ضخماً تدفعه المرأة اليوم لتلائم بين أعباء البيت ورعاية الأطفال من ناحية ، وبين الخروج للعمل من ناحية أخرى ، وهى القضية المعروفة باسم العمل المزدوج للمرأة .

هكذا وجدت المرأة المعاصرة نفسها مدفوعة بعوامل عديدة منها ما هو نفسى ومنها ما هو اقتصادى واجتماعى ، ومنها ما هو ثقافى حضارى ، ومنها ما هو إنسانى أخلاقى .

وقد ترتب على نزول المرأة إلى العمل وتعاظم مشاركتها فيه ، واتساع نطاق أدوارها الاجتماعية وتداخل هذه الأدوار بل وتعارضها فى بعض الأحيان نتائج كثيرة ، على المرأة نفسها فى علاقتها بذاتها ، وعلاقتها بالمجتمع . وفى ظل هذا المناخ يمكن القول أن المرأة بدأت

فقد تدريجياً حريتها ، وتصبح المسئولية الملقاه على كاهلها كبيرة ، ينتج ما يسمي بصراع الدور لدى المرأة العاملة[1] .

وبالرغم من أن الرجل أخذ يشارك زوجته العاملة فى بعض الأحيان إلا أن إسهامه مازال هامشياً .

وقد قارن المكتب الاقتصادى الوطنى فى " روسيا " بين الأعمال التى يمارسها الزوج والتى تمارسها الزوجة خلال يوم كامل ، والساعات المستغرقة في كل عمل من هذه الأعمال بهدف معرفة الجهد الذى يقع على المرأة وعلى الرجل خلال اليوم الواحد ، فتبين أنه على الرغم من أن ساعات العمل الأساسية واحدة عند كلاهما ، إلا أن أعمال البيت وخدمته ليست متساوية بينهما ، فالمرأة تفوق الرجل بكثير .

وإذا كان الأمر على هذا النحو بالنسبة للمرأة العاملة فى روسيا حيث اعتاد المجتمع خروجها إلى العمل ، وقدم لها الكثير من التسهيلات كما اعتاد الزوج أن يقدم لها العون بعض الوقت ، فما هو موقف عاملاتنا فى مصر ؟

---

(١) راجع تفصيل هذا من كتاب د. محمد سلامة آدم : المرأة بين البيت والعمل ، دار المعارف ط ١٩٨٢ ص ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٨ ، ٥٦ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤، د. سهير القلماوى : المرأة والعمل بين المناهج المختلفة : هل وصل تحرير المرأة إلى طريق مسدود ؟؟
مقال مترجم لماريا ماركوس ، الطبعة العربية من مجلة impact رسالة اليونسكو: العدد الرابع ١٩٧١ .

لاشك أنها تعانى أكثر بكثير ، حيث أن المجتمع لم يقدم لها بعد ما قدمه مجتمع الغرب ، كما أن الزوج المصرى - فى المجتمع الشرقى - لم يتعود بعد أن يقدم لها أى نوع من المساعدة ، لأن الرجل فى مجتمعنا لم ينشأ على أن يساهم فى الأعمال المنزلية مهما تكن بسيطة، وإن ساهم فهو بتفضيل ومجاملة منه لأن هذا واجب المرأة الأساسى ، كما أن هذه المساهمة تقلل من شأنه وتهز صورته كرجل .

وقد حاول هول Hall فى دراسة بالاشتراك مع جوردون Gordon 1974 ايجاد حل لهذا عن طريق التحرر من الصور النمطية عن الذكورة والأنوثة ، وإيجاد علاقة تفاعل بين صورة المرأة عن ذاتها وبين أدائها لأدوارها ، وبين أسلوب حل ومواجهة هذا الصراع بين هذه الأدوار ، وإنتهى من هذه الدراسة إلى تأييد الفكرة التى تقول أن تعدد الأدوار يزيد من فاعلية الشخص وقدراته على مواجهة المواقف والخبرات الجديدة . والتصرف فيها بنجاح .

وقد أكدت الباحثة دورثى نيڤيل D.Nevill 1977 هذا المعنى حين ذكرت أن الشخص ذا الأدوار المتعددة أقدر على حسن التكيف مع الظروف الاجتماعية المعقدة .

كما أن التحرر من الصور النمطية لدى كل من الذكر والأنثى يؤدى إلى أن يصبح الفرد أقدر على المواجهة الفعالة للمواقف الاجتماعية(١).

(1) Gordon, F. E, and Hall, D.7 : self image and stereotyeps of Feminity : The Relationship to women's Role Conflicts and Coping 1974.

فالمرأة عندما تكون متقبلة لذاتها وللآخرين ، وعلى قدر عال من التعليم يجعلها قادرة على مواجهة المواقف الصعبة ، ولديها قدر من الثقة بنفسها نقول أنها حينما تكون كذلك تستطيع مواجهة بما يسمى بصراع الدور بشكل إيجابى تختفى معه المشكلات التى تظهر فى أداء هذه الأدوار[١] .

(1) Nevill, D. and sandra , D. 1975 :
Family size and Role conflict in women, J. psychel . 1975 .

الـــزواج :

يترتب على أن تحصل المرأة على حقها فى التربية ، التعليم والعمل والحرية أن تتمسك بهذا فى أمور الزواج أيضاً ، فلا يصبح الزواج مجرد عقد يملك به الرجل المرأة ، بل يصبح سكن ومودة :

{ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة }

لابد للمرأة أن يؤخذ رأيها فى مسألة الزواج

والآن نعرض لموقف مل من أوضاع الزواج فى عصره .

يقول مل فى معرض حديثه عن الزواج فى الفصل الثانى من كتابه استعباد النساء :

" إذا كان الزواج هو المصير الطبيعى الذى حدده المجتمع للنساء ، فالمفروض أن تُبذل الجهود لجعل هذه الحالة (أى الزواج) مقبولة لديهن، بحيث لايكون لدى النساء سبب للأسف على أنهن حُرمن من أى إختيار آخر . ولكن المجتمع (انجلترا) فضل أن يحقق غرضه بوسائل أخري غير منصفة " .

لقد كانت النساء في المجتمعات البدائية يؤخذن بالقوة أو يبيعهن أباؤهن لزوج ما ، بل كان للوالد - حتى عهد قريب فى تاريخ أوربا - السلطة فى التصرف فى ابنته بتزويجها لمن يتراءى له ودون أى اعتبار لرأيها أو رغبتها .

صحيح أن الكنيسة كانت من هذه الزاوية أشد اخلاصاً لأخلاق أفضل حيث كانت تطلب منها أن توافق على الزواج ، وأن تقول " نعم " بصفة رسمية فى حفل الزواج ، ولكن هذه الموافقة كانت صورية لأن الفتاة لاتستطيع الرفض إذا عقد والدها النية أو أصر على هذا الزواج، إلا إذا حصلت على حماية الدين باتخاز قرار حاسم بدخول الدير(١).

والحق أن قوانين الزواج فى عصر "مل" لم تكن منصفة للمرأة على الإطلاق ، فهى إذا تزوجت حُرمت من حق التملك لأن ما تملكه حتى ولو كان قد آل إليها عن طريق الميراث يؤول إلى زوجها ، وهى إذا تركت منزل الزوجية لا تستطيع أن تأخذ شيئاً معها ، لا لأطفالها ولا أى شيء مما كانت تملكه.

يقول مل : " بعد الزواج كانت للرجل – قديماً – سلطة الحياة والموت على زوجته ، ولم يكن فى وسعها أن تلجأ إلى القانون ليحميها منه ، فقد كان هو قاضيها وقانونها ".

ويقال أن المدنية والمسيحية قد أعادت للنساء حقوقهن العادلة ، ولكن ظلت الزوجة – فى نفس الوقت – خادمة لا فكاك لها من سلطان الزوج، ولا يقل وضعها فى ذلك عن وضع العبيد ، فهى تتعهد بطاعته طوال حياتها أمام المذبح ، ولا تستطيع أن تفعل أى شيء إلا بإذنه ، ولا

---

(1) J. S. Mill : subjection of women . ch . II . p. 57 .

تكتسب ملكية إلا له ويستولى الزوج على كل حقوق الزوجة وممتلكاته
وحريتها استيلاءً كاملاً ، بمعنى أن كل ما لها له وليس العكس[١] .

هكذا كان حال المرأة أو الزوجة فى عصر مل وهى حالة أقرب م
تكون إلى العبودية ، فليس هناك عبد تصل درجة عبوديته إلى الحد
الذى تصل إليه عبودية الزوجة بكل ما فى الكلمة من معنى .

وإذا كانت تلك العبودية البشعة هي نصيبها فيما يتعلق بشخصيته
هى ، فما هو وصفها فيما يتعلق بالأطفال الذين يعتبرون مصلحة
مشتركة بينها وبين سيدها .. ؟

إنهن بنص القانون أولاده هو ، فهو وحده صاحب أى حق قانونى
عليهم ، وليس من حقها أن تقوم بأى تصرف نحوهم أو فيمايتعلق بهم
إلا بتفويض منه ، وحتى بعد موته لا تكون الزوجة الوصية القانونية
عليهم إلا إذا جعلها الزوج كذلك فى وصيته ، بل إنه يستطيع إبعادها
عنها وحرمانها منهم ، بل ومن أية وسيلة لرؤيتهم أو الإتصال بهم[٢] .

رفض مل لأوضاع الزواج القانونية فى عصره :

أعلن " مل " رفضه لهذا الوضع الجائر ، وطالب بكفالة ملكية الزوجة
بعد الزواج شأنها فى ذلك شأن زوجها الذى له الحق فقط فيما يملك .

وحين اقترن "مل" بمسز تايلور كان هذا عن حب وتقدير وأعلن أن
اقترانه بها لن يفقدها حقاً من حقوقها التى تمتعت بها قبل الزواج

(1) Ibid : p. 58 - 59 .
(2) Ibid : p. 61 - 65 .

فما ينبغى أن يقضى زواج امرأة على حق لها ، ولا أن يكون مسوغاً للعدوان على فرديتها واستغلال شخصيتها .

لابد من الاقتناع أن ميراث المرأة ومكسبها هو ملك لها بعد الزواج[1] .

ويعتقد مل أنه ليس ثمة ما يعوض الزوجة عن إهمال زوجها لها أو تهوره أو معاملته السيئة ، ولكن هذا هو الوضع القانونى لها فى عصره، فقد كانت أوضاع النساء سيئة للغاية فى انجلترا أبان القرن التاسع عشر ، وحتى الفترة التي عاشها مل ، حيث عمل بشتى الوسائل على تحريرها من هذا السجن .

وقد بدأ إصلاح هذه القوانين وتعديلها تدريجياً بعد وفاة مل ١٨٧٣، فاعترف القانون الانجليزى عام ١٨٨٢ متأثراً بنضال فيلسوفنا بحق المرأة المتزوجة فى الامتلاك أسوة بزوجها ، كما أعطى للأم حق الاشراف على ابنائها أسوة بالأب ، وتوالت القوانين التى قضت بنصرة المرأة فى الميدان السياسى والاجتماعى حتى نالت عام ١٩١٨ حق الاشتراك فى الانتخابات النيابية متى بلغت الثلاثين من عمرها ، وبعد عشر سنوات عُدل القانون إلى الواحد والعشرين ، واتيحت لها عضوية مجلس العموم .

---

(1) Ibid : p. 74 .

مل والحل الأمثل لمشكلات الزواج فى عصره (ارتباط الزواج بالأخلاق) :

يرى مل أن كل ما قيل حول حق المرأة القانونى لا مبالغة فيه ، لأن الحالة لا تحتاج إلى مبالغة ، فالقوانين فى معظم البلاد أسوأ بكثير من البشر القائمين على تنفيذها .

وإذا كانت الأسرة فى أفضل صورها مدرسة للحب والتعاطف والحنان وإنكار الذات ، فهى · فى عصره – بالنسبة لرب الأسرة مدرسة للسلطة والعجرفة والأنانية المستترة ، فحتى رعاية الأطفال أو العناية بالزوجة – إنما يتم من زاوية أنهم جزء من ممتلكاته ومصالحه الشخصية ، بحيث تتشكل سعادتهم الفردية ، من كل وجه ، تبعاً لما يفضله ويرغب فيه .

ما الحل ؟ ما الشيء الذى يخفف من أثر هذا النفوذ السيئ للسلطة ويجعلها تتفق مع ذلك القدر – من الخير الذى نراه فعلاً ؟

الحل – فيما يرى مل – فى الملاطفة النسائية – هذا على الرغم من أن هذه لا تؤثر إلا إذا كانت المرأة صغيرة وجذابة . إن العوامل الملطفة حقيقة هى العواطف الشخصية التى تنمو مع الوقت فى حدود قابلية طبيعة الرجل لها واتفاق شخصية المرأة مع شخصيته بحيث تستطيع أن تثيرها فيه ، والمصالح المشتركة فيما يتعلق بالأطفال والاتفاق العام بينهما[1].

(1) J. S. Mill : Subjection of women . p. 65 .

إذا كانت الملاطفة النسائيـة أو الرقة الأنثوية لا تؤثر إلا إذا كـانت المرأة صغيرة وجذابة ، فإن الحل الأمثل للمشكلات الناجمة عن أوضاع الزواج – فيما يرى مل – هو ما يسمى "بالند" أو " النظير" . وإذا كانت التربية الأخلاقية للبشر قد ظلت حتى الآن تنبثق أساساً من قانون القوة الذي يخلق السيد والعبد) بحيث يصبح "الند" هو العدو ، فإن هذا الوضع ينبغى أن يتغير لأن القواعد الأخلاقية التي تنبثق عنه هى أساساً علاقة أمر وطاعة ، مع أن المفروض أن الأساس الطبيعى هو المساواة ، وليس الأمر والطاعة سوى حالات استثنائية فى الحياة . أما التعامل على قدم المساواة فهو ينبغى أن يكون القاعدة العامة للمجتمع الديمقراطى .

الواقع أن الزواج الذي يتم بين أنداد أو نظراء متساويين بصفة خاصة فى التعليم والثقافة ، والذى يؤسس علي عدم الخوف ، والشعور بالأمان ، هى تجربة مشجعة أكثر من تجربة الزواج القائمة على طرف أعلى وطرف أدنى .

والرجال الذين يعملون على ترك النساء فى حالة من التبعية يمنعون أنفسهم من الاستفادة من نصف مواهب العالم ، وهم بذلك يفشلون فى إقامة حياة زوجية سعيدة ، كما يفشلون من الاستفادة مما كان يمكن للنساء القيام به فى تنظيم المجتمع ليكون أكثر كفاية وعدالة إنسانية .

إن الزواج بين أطراف أو شركاء غير متجانسين لا يقدم متعة لأى منهما ، بل قد يؤدى إلى شقاء دائم ، فى حين أن الزواج الذي يتم بين أنداد أو نظراء متساويين هوشيء مختلف .

وهنا نرى أن دعوة مل صريحة فى أن يؤسس الزواج على الحرية والمساواة وينبعث من احترام الذات والشخصية المستقلة ، فلا تكون العلاقة الزوجية علاقة قيادة وتبعية(١).

يرى مل أن الرجل الذي يتزوج من امرأة أقل منه ذكاءاً يجدها باستمرار عبئاً ثقيلاً ، بل قد تكون عقبة أمام كل طموح لديه لتحسين مستواه . ويمثل الزواج هنا أكبر عقبة لأن الزوجة لا تستطيع مشاركته فى الأهداف ، إضافة إلى ذلك وجود هوة واسعة نتيجة للفروق التى تخلقها قيود النساء . فالاتحاد بين الأفكار والميول هو المثل الأعلى للحياة الزوجية ، فإذا إنعدم هذا الشرط ، فإن كلا منهما لا يستطيع أن يقدم للآخر حياة سعيدة .

وإذا كان هناك بعض الازواج يفضل أن يختار امرأة منعدمة الشخصية تماماً بحيث لايكون لها أى ميول ، فهي على استعداد أن

---

(1) Alan Rayan : J. S. Mill . p. 157 .

راجع فى هذا حديث الطهطاوى عن الزواج ، المساواة بين الرجل والمرأة ، أمور الزواج ، إقامة الزواج على أساس من الحب والصداقة بينهما ، وأثر المرأة المتعلمة المثقفة في حياة الرجل ، وفى قدرة المرأة على تحمل الصعاب وتفوقها في هذا علي الرجل. من كتاب المرشد الأمين : الباب الخامس والسادس فى الزواج ، كتاب د. محمد عمارة : الأعمال الكاملة للطهطاوى : المرشد الأمين ص ٤٦٥ : ٥٥١ ، ٥٧٣ : ٦١٤ .

توافق عندما يطلب منها ذلك .. فهل هذا هو المثل الأعلى للزواج ؟ ما الذى يحصل عليه الرجل من مثل هذا الزواج سوى خادمة أو ممرضة؟!

- يرى مل - على العكس من ذلك أنه عندما يكون كل من الطرفين صاحب شخصية ، وعندما يتعلق كل منهما بالآخر عن طريق المشاركة الوجدانية ، فإنه بهذا يمكن إكتشاف القدرات الكامنة لكل منهما ، كما تعمل المشاركة - تدريجياً - على توحيد الأذواق والطبائع بينهما ، بأن تكتسب كل شخصية أذواق الأخرى ، أي يحدث ما يسمى بالألفة فى الزواج، وهذا بالطبع يؤدى إلي صداقة متينة ذات طابع مستمر بينهما، تجعل كل منهما يجد متعة فى اعطاء الطرف الآخر أكثر من الأخذ منه.

أما عدم التشابه بين الأزواج والذى يصل إلى الدونية فى القدرة والتحصيل فيكون له أثار سيئة .

فالسعادة الحقيقية هى التى تنبع من احترام الذات والشخصية المستقلة .

يقول مل :

" إذا كانت أخلاق العصور القديمة قد قامت على أساس الالتزام والطاعة والخضوع ، فإن أخلاق العصور التالية قد قامت على حق الضعيف فى أن يقوم القوى بحمايته أى أنها أخلاق الشهامة والكرم وقد آن الآوان لتحقيق أخلاق العدالة والمساواة "[1] .

(1) J. S. Mill : Subjection of women . p. 74 - 77 .

إن المساواة أمام القانون - فيما يتعلق بالحياة الزوجية - هى الوسيلة الوحيدة التى تجعل الحياة اليومية للجنس البشرى مدرسة للتهذيب الأخلاقى بالمعنى السامى لهذه الكلمة .

لقد ظلت التربية الأخلاقية للجنس البشرى تنبثق حتى الآن من قانون القوة ، وفى المجتمع الأقل تقدماً لايكاد الناس يعرفون أية علاقة مع أندادهم ، ومن ثم فإن الأخلاقيات القائمة تتناسب أساساً مع علاقة الأمر والطاعة . ولكن مع تقدم المجتمعات الحديثة يتحول المجتمع تدريجياً من الأمر والطاعة إلى التعامل على قدم المساواة .

وكما يقول مل : " نحن الآن ندخل فى أوضاع جديدة ستكون فيها العدالة - مرة أخرى - هى الفضيلة الأولى وهى تؤسس ليس على المساواة فحسب بل على الحب والتعاطف الوجدانى أيضاً " .

ويرى مل أن هؤلاء الذين يريدون البقاء فى العصور القديمة أى الأخلاق القائمة على الخضوع والطاعة أحياناً ما يلجأون إلى الدين لتبرير ذلك .

يقال أن الدين يفرض واجب الطاعة على المرأة ، ويرد مل على ذلك بأنه من الصعب استخراج أى حكم من هذا القبيل من المسيحية ، فإذا قيل لنا أن القديس بولس قال : أيتها الزوجات أطعن أزواجكن " فسوف نرد على ذلك بأنه قال أيضا : " أيها العبيد أطيعوا سادتكم" . وهنا الطاعة واجبة على الكل بمعنى عدم التمرد ضد القوانين القائمة .

أو بمعنى آخر هذا الرأى يعبر عن عادات وتقاليد مجتمع أكثر مما يعبر عن رأى المسيح(*).

وقبول القديس بولس لكل الأنظمة الاجتماعية كما وجدها لا يعنى عدم تجنبه محاولات تحسنها فى الوقت الملائم . والزعم بأن المسيحية تستهدف المحافظة على الأشكال القائمة للحكم والمجتمع وحمايتها من أى تغيير ، هو زعم يهبط بها إلى مستوى الإسلام أو البرهمية . فالمسيحية لم تستهدف ذلك ، ومن هنا كانت الديانة التى يدين بها القسم التقدمى من البشر فى حين أن البرهمية والإسلام وغيرهما ديانات الشعوب الجاهدة أو بالأحرى ديانات الشعوب المنحطة[1] .

من هذا نتبين أن آراء مل حول المرأة وحريتها فى القول والعمل ، وفيما يتعلق بأمور الزواج ، قد أقرها الإسلام - منذ أربعة عشر قرناً من الزمان - هذا على الرغم من وصف مل للمسيحية بأنها ديانة الجزء التقدمى من البشر ، فى حين أن البرهمية والإسلام أديان جامدة أو ديانات الشعوب المنحطة - هذه العبارة التى أوردها مل فى كتابه استعباد النساء تدل دلالة واضحة على أنه لم يكن يعلم عن الإسلام ولا عن وضع المرأة وحقوقها فيه إلا ما استمده من عناصر غريبة عن الإسلام .

(*) راجع هنا : د. امام عبدالفتاح : الفيلسوف المسيحى والمرأة ص ٥٤ وما بعدها ١٩٩٦ .

(1) J. S. Mill : subjection of women . p. 65 - 68 .

ومن الواضح أن مل كان يجهل الإسلام جهلاً تاماً ، فليس فى الإسلام ما يدعو إلى الجمود أو يمنع التقدم ، بل علي العكس نحن نجد القرآن دعوة صريحة إلى استخدام العقل والتأمل والتدبر والسخرية من التقليد الأعمى . .

الواقع أن هذه الفقرة تنطوى على الكثير من الأحجاف بالإسلام ، حيث يرد مل تخلف المسلمين إلى الدين الإسلامى ، وهو أمر بالغ الخطأ ، لأن تخلف المسلمين فى عصر ما قد يرد إلى النظم التى تحكم هذا العصر ، وليس إلى جوهر الإسلام .

فالمرأة فى الإسلام متساوية مع الرجل ، كما أن المرأة قبل الزواج شخصيتها المدنية المستقلة عن شخصية أبيها أو من هي تحت رعايته(*) . وإذا كان ذلك لاينفذ في المجتمعات الإسلامية حيث تكره الفتاة على زيجة معينة فالخطأ هنا هو خطأ المسلمين لا الإسلام وخطأ العادات والتقاليد التي أضفوا عليها قدراً من القداسة حتى حلت محل مبادئ الدين السامية .

فالزواج فى الإسلام (**) لا يفقد المرأة إسمها ولا أهليتها فى التعاقد ولا حقها فى التملك بل تظل بعد زواجها محتفظة بإسمها واسم

(*) (راجع كتابنا : القيم الأخلاقية فى الفكر الإسلامى ، الفكر الغربى الحديث والمعاصر ١٩٩٢ . الفصل الأول ص ٤٥:٦٠)

(**) علاقة المرأة بالرجل ومكانتها فى العلاقة الزوجية من القضايا الهامة التي طرحها الطهطاوى – وهو مفكر عربى مسلم معاصر " لمل" – وهنا قرر الطهطاوى شرعية "=

أسرتها وبكامل حقوقها المدنية ، وأهليتها في تحمل الالتزامات ، وابرام مختلف العقود من بيع وشراء وخلافه .

= الحب بالنسبة للفتاه وطالب بمراعاة ذلك عند الزواج . فالزواج لا يتم إلا إذا صحبته محبة وصفاء ومودة .

"خير الزوجين من كانا متحابين" هذا الحب هو أقرب إلى الصداقة التى تدوم منه إلى الشهوة التي تفتر بعد حين .

(راجع هنا : المرشد الأمين : الباب الخامس : الفصل الثامن ص ١٥٥).

كذلك لابد أن يقوم الزواج على علاقة الاحترام المتبادل بين الزوجين وليس على الأمر من جانب والطاعة من جانب آخر .

وهو يقدم للرجل والمرأة مجموعة من الوصايا والنصائح التى تؤكد الحب وتدعم أواصر الحياة الزوجية بينهما ، فيكشف لنا عن مفكر مؤمن بالمساواة فالواجبات عليهما معاً ، لأن الثمرة لهما جميعا .

كذلك حديثه عن منزل الزوجية باعتباره أمر لا يخص الرجل وحده بل والمرأة كذلك ، ص ٥٧٣ : ٦١٤ . ، د. أحمد بدوى : الطهطاوى ص ١٩٥ : ٢٠٥ .

(رأى الطهطاوى فى وحدانية الحب والزواج ، الفرق بين عشق الحواس ، عشق القلب ص ٥٥١) .

أما عن تعدد الزوجات ، الطلاق ، وهمامشكلات ناجمة عن الزواج ، فموقفه منها قد نبع أيضا عن إيمانه بالمساواه والحرية ، موقفه من وحدانية الحب التى صرح بها في كتابه : " المرشد الأمين " . فهو يعتبر التعدد " مكروها ، والاقتصار علي زوجة واحدة أفضل . أما فى حالة الضرورة التى تدعو للتعدد فلابد من اشتراط تحقيق العدل بين الزوجات . [فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة " (النساء أية ٣١) .

أما الطلاق فقد اتبع الطهطاوى موقف الشريعة فأباحه عند الضرورة ، وعند استحالة العشرة ، إيمانا منه بأن الزواج لابد أن يقوم على المحبة والصداقة والمودة والرحمة .

وقد أكد مل على ذلك حين شدد علي موضوع الطلاق والزواج مرة أخرى حتى أن أصدقاءه ذهبوا إلي أن آراءه فى هذا الصدد كانت بالغة العنف . ولكنه رأى أن من حق الذين فشلوا فى الحصول علي السعادة مرة أن يحاولوا ذلك مرة أخرى ويسمح لهم بذلك.

وهى فى هذا كله مستقلة عن شخصية زوجها وثروته ، ولا يجوز للزوج أن يأخذ شيئاً من مالها ولا يحق له أن يسترد شيئاً كان قد أعطاها إياه . فأين هذا كله من أوضاع الزواج الظالمة وحقوق المرأة المنتهكة فى عصر مل .

..... كل هذه الأمور يرفضها الإسلام الذى يتهمه مل بأنه ديانة جامدة أو ديانة الشعوب المنحطة ويوحد بينه وبين البراهمية . (ديانة هندية يدين بها معظم الشعوب الهندية) .

هل سيكون العالم أفضل إذا كسبت المرأةج حريتها ؟

هذا التساؤل الهام - الذى يعد المحور الأساسى فى هذا العمل - يطرحه مل فى بداية الفصل الرابع والأخير من كتابه " استعباد النساء"

ومن خلال الإجابة عليه يتبين موقفه من قضية المرأة ، ومن المزايا التي تعود على المجتمع إذا ما تحررت المرأة أو بمعنى آخر هل سيكون الجنس البشرى أفضل فى أى جانب إذا ما تحررت النساء ؟

يرى مل أن إساءة السلطة لا يمكن أن يكبح جماحها تماماً طالما أن السلطة باقية ، وذلك لأن السلطة لا تمنح للفضلاء من الرجال فحسب ، ولا للمهذبين منهم ، بل تمنح للرجال بصفة عامة ، وأحياناً لأشدهم وحشية .

إن قانون العبودية فى الزواج يعبر عن تناقض صارخ مع جميع مبادئ العالم الحديث فالزواج هو بالفعل حالة العبودية الوحيدة التى يعرفها القانون الإنجليزى ، فلم يعد هناك - من الناحية القانونية - عبيد سوى ربه كل منزل .

علينا إذن ليس أن نعترف بمساواة الرجال بالنساء فى كل ما يتعلق بحقوق المواطنة وفتح أبواب جميع الأعمال المحترمة أمامهن ، وكذلك التعليم والتدريب ، ليس هذا فحسب ، بل أن نبين المزايا الواضحة التى تعود علينا بإزالة هذا التفاوت بين الرجال والنساء عن طريق كسب حريتهم .

(١) أول هذه المزايا هى أولاً وقبل كل شيء تنظيم العلاقات البشرية كلها تنظيماً كلياً شاملاً يقوم على العدل وليس الظلم والقوة .

فجميع النزعات والميول الأنانية وعبادة الذات وتفضيلها تفضيلاً غير منصف - وهى الصفات السائدة بين البشر ، مصدرها وجذورها ، بل والمنبع الذى تستمد منه غذاءها الرئيسى هو الوضع الحالى للعلاقة بين الرجل والمرأة .

فإذا تم تنظيم العلاقات البشرية علي أساس قانون العدالة ، زالت الكثير من الصفات السيئة التى تتعلق بهذا الوضع .

على سبيل المثال : الطفل الذى ينشأ فى ظل العلاقات القائمة ويبلغ مبلغ الرجال وهويعتقد أنه - ولد ذكراً - وحتى إذا ما كانت هناك امرأة تقوم بتوجيه سلوكه ، فسوف يعتقد - إذا كان غبياً - أنها لاتساويه ، ولا يمكن أن تساويه فى رجاحة العقل والقدرة على الحكم . أما إذا كان ذكياً فسوف يفعل ما هو أسوأ ، لأنه سوف يكتشف أنها أسمى منه ، لكن من حقه - رغم ذلك - أن يأمرها وعليها أن تطيعه ! .

فما هو الأثر الذى يتركه هذا الإعتقاد فى سلوكه ، وعلى شخصيته؟ إن هذا الأثرلا يظهر واضحاً فى أذهان الغالبية العظمى من الرجال فى الطبقات المثقفة لأن التفاوت وعدم المساواة بين الرجل والمرأة لا يكون واضحاً - يظل بعيداً عن الأنظار . حيث نجد الشهامة والفروسية

واضحة أكثر فى حين يتوارى الإحساس بالعبودية . ولكن حين يكون التفاوت وعدم المساواة واضحة فى الطبقات التى لم تنل تربية حسنة ، فإن هذا بالقطع يؤدى إلي إنحراف كيان الرجل كله كفرد وكائن اجتماعى ، وهو شعور يوازي تماماً شعور الملك أنه أسمي من الآخرين جميعاً لأنه ولد ملكاً . وشعور النبيل بسموه لأنه ولد نبيلاً وهذا يؤدي إلى عبادة الذات عند الذكور ، لأن الموجودات البشرية هنا تنشأ على إمتلاك ميراثٍ لم تكسبه بنفسها ، وهذا يجعلها تشعر بالتفاخر الزائف، وعلى هذا النحو تتشكل شخصية الرجل المبنية على زهو كاذب وعجرفة وغرور فارغ لا معنى له .

إن الحياة الزوجية بوضعها الحالي تقوم على علاقة تناقض مع أول مبدأ من مبادئ العدل الاجتماعى ، وهى لهذا السبب تؤدى فى الحال إلى إنحراف شخصية الرجل . وهنا تكون الفائدة المرجوة التي نجنيها من تصحيح هذا الوضع هى أن نصل إلى أن :

" المبدأ الأساسى فى الأخلاق والسياسة هو السلوك ، السلوك وحده هو الذى يؤدى إلى الاحترام بمعنى أن حق الرجل فى التقدير والاحترام لا يتوقف علي وضعه بل على عمله ، وأن السبيل الوحيد المشروع للحصول علي السلطة هو التفوق وليس مجرد أنه ولد ذكراً . "

إن العمل – وليس المولد – هو الذى يجعل الفرد يستحق التبجيل والاحترام ، وهو الذى يجعل استخدامه للقوة والسلطة مشروعاً(١) .

(1) J. S. Mill : subjection of women . ch. IV. p. 105 - 106 .

(٢) أما الفائدة الثانية التى نتوقعها من تحرير النساء هى منح النساء حرية استغلال ملكاتهن بأن تترك لهن حرية الاختيار فى عملهن، وفتح ميادين العمل المتاحة للرجال بنفس المكافأة التى تمنح للرجال ... أقول إن الفائدة الثانية المتوقعة هى :

مضاعفة الملكات العقلية المتاحة للخدمات الرفيعة للبشرية ، فحينما يوجد الآن شخص واحد مؤهل لنفع البشرية ودعم الصالح العام - فى هذه الحالة ستكون الفرصة مواتية لوجود شخصين.

فإذا عرفنا أن التفوق العقلى الآن ، فى كل مكان ، أقل كثيراً من المطلوب ، أدركنا أن هناك نقصاً شديداً فى الأشخاص ذوى الكفاءة للقيام بالأمور التى تتطلب إتقاناً ومقدرة كبيرة بحيث أن خسارة العالم تكون خطيرة جداً وعظيمة عندما نرفض استخدام نصف ما يمتلك من المواهب الذهنية وذلك بحرمان المرأة من مشاركة الرجل فى العمل فى الوظائف المختلفة .

هذه الأضافة الضخمة للقدرة الذهنية للنوع البشرى وللقدر المتاح لإدارة الأمور إدارة حسنة ، يمكن أن نصل إليها - إلى حد ما - عن طريق تربية النساء تربية ذهنية أفضل ، مع تنشئة الرجال بنفس الطريقة التى تجعل المساواة بين الجنسين حقيقة واقعية . وبهذه الطريقة يتسع نطاق عمل المرأة من أجل الصالح العام ، وبغض النظر

عن ذلك فإن مجرد كسر الحواجز وتحطيمها سيكون له فى حد ذاته فضيلة تربوية ذات قيمة كبري ، إذ يزيد من وعى المرأة بأنها موجود بشرى مثل أى موجود بشرى آخر ، وأن لها الحق فى اختيار ما تريده[1] .

(٣) يعتقد مل أنه بالإضافة إلى كم المواهب الفردية المتاحة لإدارة شئون البشر ، فإنه يذهب أيضا إلى أن تحرير المرأة سوف يجعل تأثير النساء فى معتقدات البشر ومشاعرهم تأثيراً أفضل مما كان عليه فى الماضى . ويقول " مل " مفيد ، إن لم يكن كبيرا ، لأن تأثير النساء على الرأى العام كان باستمرار ، أو على الأقل منذ أقدم العهود ، بارز جداً وكان هذا الرأى هام فى تشكيل الشخصية وتقدم الحضارة وقد كان تأثير النساء قوى فى المعتقدات والمشاعر على مر التاريخ كما هو واضح فى أعتناق الأنجلو ساكسون للديانة المسيحية ، والأثر البالغ للنساء فى عصر الفروسية فى المشاعر والتهذيب الأخلاقى ، وهي صفات الكرم والرقة وانكار الذات وما إلى ذلك .

ويمكن القول أن المثل الأعلى للفروسية هو الذروة التى وصل إليها تأثير مشاعر النساء على التهذيب الأخلاقي للجنس البشرى – ولكن لم ينته تأثير النساء – فى الوقت الحاضر – بأنتهاء عصر الفروسية ، ولكنه أصبح أقل أو لم يعد محدد أو واضح المعالم بسبب التغيرات التى

(1) Ibid : p. 106 - 111 .

طرأت على الحالة العامة للنوع البشرى ، والتى جعلت من الضرورى وضع مثل أعلى أخلاقى مختلف ليحل محل فن الفروسية . ففى المجتمعات الحديثة أصبح كل شىء يحسم لا بالجهد الفردى ، بل بعمليات جماعية لعدد من الأفراد ، وتحول نمط المجتمع من المجتمع القتالى إلى ميدان الأعمال والصناعة . ولا يشترط أن تكون متطلبات الحياة الجديدة بعيدة عن فضائل الكرم الذي كان سائداً فى الحياة القديمة ، ولكنها لم تعد تعتمد عليها إعتماداً تاماً ، فلابد أن تكون الأسس الرئيسية للحياة الأخلاقية فى العصور الحديثة هى العدالة والفطنة واحترام كل فرد لحقوق الآخرين .

ويعتقد "مل" أنه مازال لتأثير النساء قيمة كبيرة فى سمتين من أبرز سمات الحياة الأوربية الحديثة : نفور المرأة من الحرب ، إتجاهها نحو الأعمال الخيرية : الأريحية (الكرم) وأهم ميدانين للنساء من زاوية الأعمال الخيرية بصفة خاصة هما التبشير الدينى والإحسان .

وتظهر هذه الاعتبارات على مدى فائدة الدور الذى تقوم به النساء فى تكوين الرأى العام ، وهو دور سيكون أفضل إذا ما تم توسيع نطاق تعليمهن وممارستهن العملية للأشياء التى يكون لهن فيها نفوذ ، وهو أمر يترتب بالضرورة على تحررهن الإجتماعى والسياسى .

هكذا يؤكد " مل " أن تأثير المرأة يكون أكبر وأنفع إذا ما نجم عن شخصية نسائية تتمتع بالاستقلال والحرية أكثر من شخصية تابعة

ضيت منذ مولدها بمصيرها ، وأصبح قدرها أن تتلقى كل شيء من الآخرين[١] .

هنا يعود " مل " إلى ما أكده مراراً سواء فى كتابه الأول : "الحرية" أو الثانى "استعباد النساء" ، على قيمة الحرية والشخصية المستقلة – التى أوضحنا لها سابقاً .

ونراه يؤكد مرة أخرى على هذا بقوله :

" إن مرحلة السمو المعنوى للجنس البشرى لن تبدأ حقيقة إلا عندما تطبق قاعدة المساواة العادلة على العلاقات الاجتماعية ، وعندما تتعلم الكائنات البشرية أن تنمى أعمق عواطفها مع ند فى الحقوق والنمو ، فالحرية هى أقوى حاجات الطبيعة بعد الضرورات الأولية من غذاء وكساء .

إن كل ما قيل وكتب منذ عهد هيرودوت حتى الآن عن نبل أثر حرية الحكم لابد أن ينطبق على النساء فى كل تفاصيله كما ينطبق على الرجال تماماً . وكل حد لحرية التصرف لدى أى مخلوق آدمى يؤدى إلى جفاف الينبوع الرئيسى للسعادة البشرية[٢] .

(1) Ibid : p. 124 - 126 .
(2) Ibid : p. 124 .

خاتمة وتقييم

نأتى الآن إلى ختام هذا العمل ، وقد رأينا فى تضاعيف بحثنا أن نقطة البدء التى انطلق منها "مل" فى حديثه عن المرأة ودفاعه عنها والمطالبة بتحريرها ومساواتها بالرجل .. هى " الحرية " التى تمثل الدعامة الأساسية لفكر "مل" السياسى والأخلاقى بوجه عام ، وفكره عن المرأة على وجه الخصوص .

وقد تبين لنا أن الحرية عند "مل" إنما تعنى النمو الحر للفردية ، والبعد عن النمطية ، القدرة على الأصالة والابتكار ، واستقلال الشخصية .

وقد أقر "مل" – فى دفاعه عن حرية الفكر والسلوك – أن عدم التسامح الاجتماعى لا يقتل أحداً ولا يستأصل فكرة ، لكنه يدفع الناس إلى إخفاء آرائهم فى صور أخرى .

والحرية عند "مل" – كما أوضحها – حرية مسئولة ، بمعنى أنها مقيدة بقيود المجتمع دون إفراط . فالفرد حر فى أن يفكر ويعمل ويشعر ويعتقد دون وضع حدود لهذا طالما أنه لا يمس مشاعر الآخرين .

ونحن نرى أن دفاع "مل" عن الحرية جدير بالملاحظة ، ونحن حريصون – معه – على هذه الدعوة إلى الحرية البشرية إذا أريد للبشر النهوض والتقدم . إن من يدع العالم يختار له خطة حياته لا

يستحق أن يحيا حياة كريمة ، والإنسان الذى يتخلي عن حريته إنما يتخلى فى نفس الوقت عن إنسانيته ، كما أن الحياة نفسها تفقد قيمتها بدون الحرية .

" إذا لم يستطع الإنسان أن يرقى على طريقته فلن يرق على الأطلاق ".

وإذا جاز لنا أن نخلص إلى نتائج من بحثنا لوجدنا أن أبرز هذه النتائج التى تمخض عنها دفاع "مل" عن الحرية عامة وحرية المرأة بوجه خاص ما يأتى :

(١) أكد "مل" على أن مبدأ تبعية المرأة للرجل لا يستند إلى دليل عقلى أو تجربة ، وإنما جاء كرد فعل للعادات والتقاليد الموروثة ، ولكن العادة - مهما كانت قوية - لا تصلح لأى إدعاء ، وهذا الوضع البالى - من أوضاع الماضى - لابد أن يختفى .

وانطلاقاً من هذا ، ورداً على الوضع الاجتماعى السيئ للمرأة فى عصر "مل" ، طالب "مل" بمساواة المرأة بالرجل فى كافة المجالات ورأى أن قانون القوة الذى كان يحكم العلاقات الاخلاقية والاجتماعية بين البشر لابد أن يختفى ليحل محله مبدأ المساواة الكاملة بين الرجل والمرأة .

هذا الدفاع عن المرأة من جانب "مل" - والذى يعد إمتداداً لمذهبه فى الحرية - جميل ولاغبار عليه .

ولكن إذا كان إيمان "مل" القوى بالحرية والمرأة قد دفعه إلى القول بالمساواة الكاملة بينهما ، حيث لاتوجد فروقاً طبيعية أو فسيولوجية بين الرجل والمرأة ، وحتى إذا وجدت فهى فروقاً مصطنعة لأنها ليست سوى الأثر الطبيعى للإختلاف فى التربية والظروف الاجتماعية . نقول أن هذا غير صحيح : لأن المساواة بين الرجل والمرأة التى طالب بها "مل" – ونحن لا ننكر عليه هذا – لا تلغى الفروق الطبيعية بينهما ، فقد تكون المرأة ضعيفة البنية بالقياس إلى الرجل ، لكن هذا لا يعيبها أو يقلل من قدراتها العقلية .

يقول مل : " إن ما يسمى طبيعة النساء يعد شيئاً مصطنعاً نشأ نتيجة القهر والدوافع الغير طبيعية ونحن لانعرف ما هى طبيعة الأنثى التى تختلف عن طبيعة الذكر ... لو غيرت البشرية الأوضاع الاجتماعية الظالمة لما وجدنا فروقاً جوهرية تميز بين الرجل والمرأة " .

خلاصة القول أن المساواة بين الرجل والمرأة قد تكون فى الحقوق والواجبات ولكنها لا تؤدى إلى محو الاختلافات الطبيعية الجوهرية بين الرجل والمرأة .

من هذا يتبين لنا أن " مل " بسبب حماسه الزائد للمساواة بين الرجل والمرأة لم يتبين بما فيه الكفاية دلالة وعظم الفروق السيكولوجية التى تدخل فى التمييز بين الجنسين – وهى فروق أوجدتها الطبيعة ولا يستطيع التشريح أن يمحوها ، فهو ينظر إلى الجنس على أنه مجرد

عارض ، كذلك لم يتبين الشرور التى تنجم عن أى تغير أساسى فى العلاقات بين الرجال والنساء . فماذا عن المروءة والنجدة إذا انغمس النساء كلية فى خضم حياة الرجال ، وماذا عن لطف الشمائل والخصائص الأنثوية الجذابة التى إن ضاعت كانت لا أقل من كارثة على العالم .

يقول مل فى ختام الفصل الأول من كتابه استعباد النساء :

" والمفروض أن الرجال يرون أن العمل الطبيعى للمرأة هو عملها كزوجة وأم ، وأقول المفروض لأن المرء يستطيع أن يخرج بأن رأى النساء مناقض لذلك تماماً وأنهن مرغمات على وضعهن الراهن " .

من هذا نتبين أن مل لم يقدر حق التقدير مكانة الأم ومهامها فى البيت ، ولم يقدر أهمية الدور الذى تقوم به فى تنشئة أبنائها وما فى ذلك من تضحية ونبل ، لا بالنسبة لأفراد الأسرة فحسب بل بالنسبة للمصالح الأولى العليا للدولة وللعالم أجمع .

فالنساء لسن مرغمات على وضعهن كزوجات وأمهات ، وإنما على الوضع السيء للعلاقة الزوجية السائدة فى عصر مل .

ونحن نرى أن عمل المرأة كزوجة وأم - رغم ما به من صعاب - لا يتعارض مع قيامها بأى عمل آخر ونجاحها فيه طالما أنها تستطيع التوفيق بين أدوارها كما سبق أن أوضحنا . فالمرأة أقدر من الرجل

على تحمل الصعاب ومتاعب الحياة وتخفيف الآلام وهذا بفضل ما وهبها الله من قدرة على ذلك .

(٢) طالب "مل" بتحرير المرأة عن طريق العلم ، العمل ، ورأى أن العلم ضرورى للرجال والنساء ، فطالب بتعليم النساء علي قدم المساواة مع الرجال وفى نفس فروع المعرفة .

كذلك رأى أن تحريم العمل على النساء لايقتصر ضرره عليهن فحسب بل يلحق أيضاً بمن يستفيد من خدماتهن (أى المجتمع) .

وانطاقاً من مبدأ المساواة الكاملة بين الرجل والمرأة اعتقد مل إن من حق المرأة أن تتولى المناصب السياسية العليا ، كالبرلمان أو السلطة أو الملك كذلك يمكن لها حق التصويت أو الانتخاب . وذلك لأن تجربة العصور القديمة والحديثة قد اثبتت أن الكثيرات من النساء قد أثبتن قدرتهن علي القيام بكل شيء وبطريقة ناجحة ومشرفة .

وقد تبين لنا مدى تفوق المرأة عبر العصور فى مجالات مختلفة كالسياسة والفن والأدب ، وغيرها وذلك رغم القيود والظروف الاجتماعية التى تعمل فيها المرأة .

ويعتقد مل أنه إذا ما تركت الفرصة لطبيعة النساء لتنمو بحرية وبلا قيود فلن تكون هناك فروقاً أو إختلافات فى الطبائع والقدرات .

هذا الدفاع عن المرأة من جانب مل موقف يستحق الثناء والتقدير ولكن : هل من حق المرأة أن تتولى المناصب السياسية العليا كمنصب

القاضى (القضاء) ؟ وإذا كان قانون العمل يسوى بين الرجل والمرأة بحيث يعطيها الحق فعلاً ، فهل تستطيع أن تخوض صعاب هذا الموقف وتنجح فيه كما حدث وأثبتت نجاحات فى مناصب عديدة تتناسب وطبيعتها ؟

وإذا كان الأمر كذلك .. فماذا عن غزو الصحراء ، التنقيب عن البترول ، وغيرها من المهن التي تتطلب قوى عضلية ، تواجد فى أوقات قد لا تتناسب مع طبيعة المرأة .

لقد عبر غلاد ستون عن هذا أحسن تعبير حين قال في عام ١٨٩٢ وهو يناهض مشروع قانون بمنح المرأة حق الانتخاب البرلمانى ما نصه:

" لست أخشى على الاطلاق أن تعتدى المرأة على سلطان الرجل ، إنما أخشى أن ندعوها - عن غباء - إلى أن تأثم فيما تمتاز به طبيعتها من رقة ونقاء ودماثة وسمو ، وهي المصادر الراهنة لسلطانها".

(٣) أعلن مل رفضه لأوضاع الزواج الظالمة فى عصره ، وطالب بتغييرها ، وهنا نتبين أن آراؤه حول هذا الموضوع جاءت تتويجا لمبدأى المساواة والحرية اللذان آمن بهما منذ البداية .

رأى مل أن الزواج لابد أن يقوم على المساواة بين الرجل والمرأة فى العلم والثقافة والكفاءة ... بإختصار يقوم الزواج بين أنداد أو نظراء .

الزواج – فيما يرى مل – لا يفقد المرأة حريتها وشخصيتها وكل حقوقها بعد الزواج مكفوله لها . فما ينبغي أن يقضى زواج امرأة على حق لها ، ولا أن يكون مسوغاً للعدوان على شخصيتها وفرديتها .. هذا بخلاف ما كان سائداً فى عصره من قوانين جائرة تمنح الزوج حق الحياة والموت على زوجته وتسلبها كل حقوقها ، وتجعل الحياة الزوحية أقرب إلى العبودية .

ومن آراء مل حول أمور الزواج ومطالبته بتعديلها وإيمانه القوى بالحرية والمساواة نري أننا أمام دستور للحياة الزوجية جدير بأن يتبع.

ولاشك أن الكثير من الآراء التي أدلى بها مل حول أمور الزواج قوى إلى حد كبير ، ويكفى أن نقول أن القانون الانجليزى قد اعترف فى عام ١٨٨٢ – متأثرا بآراء مل – بحق المرأة المتزوجة فى الامتلاك أسوة بزوجها . وفى عام ١٨٨٦ جعل للأم حق الاشراف على أبنائها أسوة بالأب ، وتوالت القوانين التى تنادى بنصرة المرأة فى الميدان السياسى والاجتماعى .

وبرغم هذه المميزات التى اتيحت للمرأة بفضل نضال مل من أجل تحريرها إلا أن له بعض المبالغات فى رسم صورة كئيبة عن الحياة الزوجية ، كما أن لفظ الاستعباد إن اتفق فى بعض الحالات الخاصة لا يمكن أن يكون شاملاً عنيفاً وبلا تحديد .

(٤) تساءل مل : هل سيكون العالم أفضل إذا تحررت المرأة ؟ وأكد مل على هذا بالايجاب ، موضحاً المزايا التى تعود على المرأة والمجتمع من هذا ، وانتهى - من حيث بدأ - إلى مبدأ المساواة وإقامة العلاقات الاخلاقية والاجتماعية علي أساس العدل بدلاً من القوة .

كما أن المبدأ الذى يحكم الأخلاق هو السلوك والعمل وليس النوع (ذكر أو انثى) فالاحترام والتقدير أساسه العمل والفعل : كذلك فإن تحرير المرأة سيعود على المجتمع بالنفع حيث تتضاعف القدرات العقلية المتاحة ، وسيؤدى هذا إلى تغيير نظرة المجتمع إلى المرأة ، كما يجعل تأثير النساء فى معتقدات البشر ومشاعرهم أفضل بكثير مما كان عليه فى الماضى .

لاشك أن هذه الآراء التى عرضها " مل " آراء قيمة فى مجموعها وهى جديرة بالمناقشة ، لأنها قضايا حية مازالت إلى الآن موضع جدل ونقاش وتقف ما بين مؤيد ومعارض .

ومهما كانت آراء مل ، وما بها من مبالغات فى بعض الأحيان ، إلا أن له الفضل فى إثارة مثل هذه القضايا وطرحها أمام الرأى العام ، وهنا كان مل دائماً مهموماً بواقعه ومشكلات عصره . ويكفى أن له السبق فى الدعوة إلى تحرير المرأة والمطالبة بحقوقها كاملة ، وكان لهذا أثره فى القوانين التى جاءت لنصرة المرأة فيما بعد.

ولنا أن نقول أن هذه القضايا التى عرضها " مل" والتى عرضنا لها فى سياق هذا البحث قد طرحت فى فكرنا العربى ، وقد أوضحنا هذا فى تضاعيف هذا العمل ، ويكفى أن نقول أن الفكر العربى قد دعا إلى تحرير المرأة وأكد على حقوقها كاملة سواء فى الفكر أو العمل أو السلوك أو فيما يتعلق بالملكية والزواج ... إلخ ، ولكن فى كل عصر نجد من يعلى من قيمة المرأة ويعطى لها حقها ، كما نجد من هم أعداء المرأة - إن جاز هذا التعبير -الذين يستخدمون الدين استخداماً خاطئاً بدعوى أن الدين يفرض واجب الطاعة ... نقول أن الخطأ ليس فى الدين أو فى النظرية بقدر ما هو خطأ فى التطبيق أو الجانب السلوكى للبشر .

هذا باختصار بعض ما يتعلق بآراء مل حول حرية المرأة ، ويمكن القول بأن مل قدم لنا برنامج عمل أو منهج أو طريق للبحث والتساؤل ، وتبقى علينا مهمة التنفيذ ، هذه المهمة التى تستلزم جهوداً مشتركة من قبل المفكرين والفلاسفة ، فهذا يعطينا الشعور بالمسئولية الملقاه على عاتقنا حينما نجعلها مسئولية أخلاقيه مشتركة .

ونحن الآن بحاجة إلى قراءة أفكار مل الحرة واستيعابها وتمثلها والسعى الدائب نحو تحقيقها فى مجتمعاتنا العربية .



أهم المصادر والمراجع

English sources

1) J. S. Mill : Autobiography . N. Y. 1928 .

2) ______ : On liberty London. 1859 .

3) ______ : Subjection of women London. 1869.

4) Alan Rayan : J. S. Mill : Routldge and keganpaul . London . 1954 .

5) __________: The philosophy of J. S. Mill . Macmillan . 1970.

6) Anschutz, R. P : The philosophy of J. S. Mill oxford. 1963.

7) Britton, K. J. S. Mill london, 1953.

8) Day, J. P. : J. S. Mill . Macmillan. 1964.

9) Gordan, F. E. and Hall, D, self image and stereo types of Feminity : Relation ship to women's Role conflicts and coping. 1974.

10) Hayek : J. S. Mill and Harriet taylor. london. 1951.

11) Max Lerner : Essential works of J. S. Mill N. Y. 1969 .

12) Moclskey , H. J - J. S. Mill. london . 1971 .

13) Nevill, D. and Sandra, D: Family size and Role Conflict in women. J. Psychel . 1975 .

المصادر والمراجع العربيه :

١ - د. إبراهيم هلال : من بطولات المرأة فى الإسلام . مكتبة النهضة العربية ، ١٩٨٥ .

٢ - د. إمام عبدالفتاح إمام : الفيلسوف المسيحى والمرأة . مكتبة مدبولى ، ١٩٩٦ .

٣ - ________ : أفكار ومواقف . مدبولى ، ١٩٩٦ .

٤ - ________ : استعباد النساء . مدبولى ، ١٩٩٨ .

٥ - أحمد أحمد بدوى : رفاعة الطهطاوى . لجنة البيان العربى ، ١٩٥٠ .

٦ - رفاعة الطهطاوى : تخليص الابريز فى تلخيص باريز . ط ١٨٣٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٣ .

٧ - ________ : مناهج الألباب المصرية فى مناهج العلوم العصرية ، ١٨٦٩ ، ط ٢ ، ١٩١٢ .

٨ - ________ : المرشد الأمين فى تعليم البنات والبنين ١٨٧٢، ط. ٢ ، ١٨٧٥ .

٩ - د. سهير القلماوى : المرأة والعمل بين المناهج المختلفة ، مقال مترجم لماريا ماركوس : الطبعة العربية من مجلة impect رسالة اليونسكو : العدد الرابع ١٩٧١ .

١٠ - د. عائشة عبدالرحمن : المفهوم الإسلامى لتحرير المرأة . محاضرة نشرت بجامعة أم درمان . ١٩٦٧ .

١١ – د. علي عبدالواحد وافى : المرأة فى الإسلام ط٨ . دار نهضة مصر ١٩٧٩ .

١٢ – قاسم أمين : تحرير المرأة ط ٢ ، ١٩١١ .

١٣ – د. محمد عمارة : الأعمال الكاملة للطهطاوى . حـ١ ، حـ٢ ، المؤسسة العربية للدراسات ، والنشر ، بيروت ، ١٩٧٣.

١٤ – د. محمد سلامة آدم : المرأة بين البيت والعمل : دار المعارف طـ١، ١٩٨٢ .

١٥ – د. مصطفى سويفى : تغير الوضع الاجتماعى للمرأة فى مصر المعاصرة المركز القومى للبحوث . ١٩٧٤ .



الفهـــرس

الموضـــوع	الصفحة

رقم الإيداع
٩٩/١٤٥١٧